الباب الثاني

فضائل الصحابة في ميزان الشريعة الإسلامية

الفصل الأول : ماذا عن التفاوت في الفضل؟!

الفصل الثاني : فضائل الصحابة من خلال القرآن وتفسيراته .

الفصل الثالث : فضائل الصحابة من خلال الأحاديث النبوية .

obeikandi.com

obeikandl.com

الفصل الأول

ماذا عن التفاوت في الفضل؟!

خلق الله تعالى الإنسان وفضله على سائر المخلوقات ، وهذا ما أخبر به القرآن ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

ثم جعل الله سبحانه وتعالى التفاضل بين الخلق ، فقال عز وجل : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾

[الإسراء : ٢١] .

وقرر في القرآن الكريم العلّة في تفاوت التفضيل ، فقال تعالى : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

وقال أيضاً : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

وهكذا يسوق القرآن الكريم شواهد لهذا التفاضل في كثير من آياته ، مثال ذلك : التفاضل بين أنبياء الله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] . وعلّق الإمام الرازي على ذلك بقوله :

وقد أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض ، وعلى أن محمداً ﷺ أفضل من الكل"[1] .

ومثال التفضيل أيضاً : تفضيل الزمان بعضه على بعض ، كما في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر : ١-٣] .

وكذلك تفضيل المكان ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ ﴾ [آل عمران : ٩٦-٩٧] .

ثم يلفت القرآن الكريم النظر إلى قضية مهمة هي :

أن لا تعترضوا على هذا التفضيل ، ولا تحسدوا الذين فضلهم الله على الآخرين ، لأن المسألة فيها حكم وعبر ، لا يفهمها إلا الراسخون في العلم ، من ذلك ما قاله تعالى : ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [البقرة : ٩٠] .

وقال أيضاً : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٥٤] .

ولذلك جاء النهي للمؤمنين بأن يدخلوا ضمن التمني في مسألة التفضيل ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [سورة النساء : ٣٢] . وفي الشريعة الإسلامية فإن التفضيل يكون بعظم الدرجة وكثرة الثواب ورفع الأجر

---

(١) التفسير الكبير : ٦/٢٠٨ .

عند الله سبحانه وتعالى ، كما قال الإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى :

(إنه ما أدركه من حيث عظم الأجر وكثرة الثواب ورفع الدرجات وموقع القبول عند الله ، فإن الله يجعل للنفقة القليلة من الأجر والثواب ما لا يجعل للنفقة الكبيرة ، وذلك لعظم موقع تلك النفقة ، وشدة الاحتياج إليها)[1] وهكذا يبيّن القرآن الكريم وجه التفاضل بين الصحابة الكرام فيقول تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ﴾ [الحديد : ١٠] .

وأما ما يتعلق بمسألة من هو أفضل الصحابة ، ففي ذلك آراء كثيرة ، لكن أهمها :

الرأي الأول :

الإمساك عن الخوض في ذلك ، وتفويض الأمر إلى الله سبحانه وتعالى .

وممن ذهب إلى ذلك الآلوسي ، وأبو علي الجبائي ، والقاضي عبد الجبار ، وابن أبي الحديد ، وغيرهم[2] .

الرأي الثاني :

يرون جواز الخوض في بيان الأفضل من الصحابة الكرام ، وكانت النتيجة انقسامهم إلى عدة مذاهب ، أهمها :

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري : ٧/ ٣٤_٣٥ .
(٢) للتوسع يراجع : الأجوبة العراقية : ٦٣ ، المغني : ٢٠/ ١١٨ ، شرح الأصول الخمسة : ٧٦٧ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١/ ٩ ، حاشية الكستلي على شرح التفتزاني : ١٧٩ .

١ـ مذهب أهل السنة :

الذين صرّحوا بأفضلية الصدّيق أبي بكر رضي الله عنه على سائر الصحابة الكرام ، واحتجّوا على ذلك بعدّة أدلّة ، أهمها قول الله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل : ١٧ ـ ١٨] وأكثر المفسّرين على أن الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه ، قال الفخر الرازي رحمه الله : (إن المراد من هذا الأتقى هو أفضل الخلق ، فإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد هو أبو بكر ، فهاتان المقدمتان متى صحتا صحّ المقصود ، وإنما قلنا : إن المراد من هذا الأتقى أفضل الخلق لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

والأكرم هو الأفضل ، فدلّ على أن كل من كان أتقى وجب بأن يكون أفضل ، فإن قيل : الآية دلّت على أن كل من كان أكرم كان أتقى ، وذلك لا يقتضي أن كل من كان أتقى كان أكرم ، قلنا : وصف كون الإنسان أتقى معلوم مشاهد ، ووصف كونه أكرم غير معلوم ولا مشاهد ، والأخبار عن المعلوم بغير المعلوم هو الطريق الحسن ، أما عكسه فغير مفيد ، فتقدير الآية : كأنه وقعت الشبهة في أن الأكرم عند الله من هو؟

فقيل : هو الأتقى ، وإذا كان كذلك كان التقدير أتقاكم أكرمكم عند الله ، فثبت أن الأتقى المذكور ههنا لا بدّ وأن يكون أفضل الخلق عند الله .

فنقول : لا بدَّ أن يكون المراد به أبا بكر ، لأن الأمة مجمعة على أن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ إما أبو بكر أو عليّ ، ولا يمكن حمل هذه الآية على عليّ بن أبي طالب فتعين حملها على أبي بكر ، وإنما

www.alkalemah.com

قلنا إنه لا يمكن حملها على عليّ بن أبي طالب ، لأنه كان في تربية النبي ﷺ لأنه أخذه من أبيه ، وكان يطعمه ويسقيه ، ويكسوه ويربيه ، وكان الرسول منعماً عليه نعمة يجب جزاؤها .

وأما أبو بكر : فلم يكن للنبي ﷺ نعمة دنيوية ، بل أبو بكر كان ينفق على الرسول ، بل كان للرسول عليه نعمة الهداية والإرشاد إلى الدين ، إلا أن هذا لا يجزي لقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [سورة ص : ٨٦] .

والمذكور هنا ليس مطلق النعمة ، بل نعمة تجزى ، فعلمنا أن هذه الآية لا تصلح لعلي بن أبي طالب ، وإذا ثبت أن المراد بهذه الآية من كان أفضل الخلق ، وثبت أن ذلك الأفضل من الأمة إما أبو بكر أو علي ، وثبت أن الآية غير صالحة لعليّ ، تعين حملها على أبي بكر رضي الله عنه ، وثبت دلالة الآية أيضاً على أن أبا بكر أفضل الأمة)[١] .

كذلك فقد احتج أهل السنة على أفضلية أبي بكر بطائفة كبيرة من الآثار المرفوعة ، من ذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما : كنا نخيّر بين الناس في زمن النبي ﷺ ، فنخيّر أبا بكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنهم[٢] .

ومن ذلك ما قاله عليّ رضي الله عنه لأبي جحيفة : يا أبا جحيفة ، ألا أخبرك بأفضل هذه الأمة بعد نبيّها؟ قال : قلت : بلى ـ ولم أكن أرى أن أحداً أفضل منه ـ قال : أفضل هذه الأمة بعد نبيّها أبو بكر ،

---

(١) التفسير الكبير : ٣١/٢٠٦ .
(٢) صحيح البخاري : ٢/٢٨٩ .

وبعد أبي بكر عمر ، وبعدهما آخر ثالث لم يسمّه[١] وعن محمد بن الحنفية قال : قلت لأبي : أيّ الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال : أبو بكر ، قلت : ثم من؟ قال : عمر وخشيت أن يقول عثمان ، قلت : ثم أنت؟ قال : ما أنا إلا رجل من المسلمين!![٢] .

ولكثرة المزايا الحسنة والفضائل الحميدة التي تخلّق بها أبو بكر فقد أجمعت الأمة على أفضليته على الأمة بعد رسول الله ﷺ ، وقد صرّح بذلك علماء أهل السنة ، من ذلك ما قاله الإمام الغزالي رحمه الله تعالى :

(وترتيبهم [الخلفاء الراشدين] في الفضل عند أهل السنة كترتيبهم في الإمامة ، وهذا لمكان أنّ قولنا فلان أفضل من فلان ، أن معناه أن محله عند الله تعالى في الآخرة أرفع ، وهذا غيب لا يطلع عليه إلا الله ورسوله إن أطلعه عليه ، ولا يمكن أن يدعى نصوص قاطعة من صاحب الشرع متواترة مقتضية للفضيلة على هذا الترتيب ، بل المنقول الثناء على جميعهم ، واستنباط حكم الترجيحات في الفضل من دقائق ثنائه عليهم ، رمي في عماية ، واقتحام أمر آخر أغنانا الله عنه ، وتعرف الفضل عند الله تعالى بالأعمال مشكل أيضاً ، وغايته رجم ظن ، فكم من شخص منخرم الظاهر وهو عند الله بمكان ، لتعلق قلبه مع الله تعالى ، وكم من مزين بالعبادة الظاهرة وهو في سخط الله ، لخبث مستكن في باطنه؟ فلا مطلع على السرائر إلا الله تعالى ، ولكن إذا ثبت أنه لا يعرف الفضل إلا بالوحي ، ولا يعرف ما النبي إلا بالسماع ، وأولى الناس بسماع ما يدل على تفاوت فضائل الصحابة : الملازمون

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/١٠٦-١٠٧ .
(٢) صحيح البخاري : ٢/٢٩١ .

لأحوال النبي ﷺ ، وهم قد أجمعوا على تقديم أبي بكر ثم نصّ أبو بكر على عمر ثم أجمعوا بعده على عثمان ثم على عليّ رضي الله عنهم .

وليس يظن منهم الخيانة في دين الله تعالى لغرض من الأغراض ، وكان إجماعهم على ذلك من أحسن ما يستدلّ به على مراتبهم في الفضل ، ومن هنا اعتقد أهل السنّة هذا الترتيب في الفضل ، ثم بحثوا عن الأخبار ، فوجدوا فيها ما عرف به مستند الصحابة وأهل الإجماع في هذا الترتيب)[1] .

٢ـ مذهب الشيعة الإمامية :

والذين صرحوا ، بأن أفضل الصحابة على الإطلاق هو سيدنا عليّ ، واحتجوا بعدة أدلة ، منها آية المباهلة / سورة آل عمران : ٦١/ ، وحديث الطائر ، وحديث المؤاخاة ، وحديث خيبر ، وبعض تفسيرات معينة لآيات من القرآن الكريم و. . .[2] .

لكن أهل السنة تابعوا تلك الأدلة كلها وردّوها نظراً لضعف في رواياتها ، أو أن تأويلها بهذا الشكل لا يصح عقلاً أو نقلاً[3] .

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد : ١١٨ ـ ١١٩ .

(٢) للتوسع : منهاج الكرامة لابن المطهر الحلي : ١/١١٩ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ١/٧ـ٩ ، المراجعات لعبد الحسين الموسوي : ١٨٧ ، الملل والنحل للشهرستاني : ١/١٥٦ ، وغيرها .

(٣) للتوسع : منهاج السنة لابن تيمية : ٤/ ٣٤ ، طبقات الشافعية للسبكي : ٤/ ١٦٨ ، اللآلىء المصنوعة للسيوطي : ١/ ٣٢٦ ، ميزان الاعتدال للذهبي : ٤/ ١٢٨ ، العلل المتناهية في الأحاديث الواهية لابن الجوزي : ١/ ٢١٣ ، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لعبد الرحمن المباركفوري ، ١٠/ ٢١٥ .

٣ـ مذاهب متفرقة :

كمذهب الخطابية الذين يفضلون عمر رضي الله عنه ، وآخرون فضّلوا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، وآخرون فضّلوا العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وغيرها[(١)] .

ومن خلال الأدلة والحجج التي ساقها أصحاب كل مذهب ، يتبيّن أن مذهب أهل السنة في هذا الأمر هو المذهب الصحيح المعتمد ، قال ابن كثير رحمه الله وأبو منصور البغدادي وغيرهما ـ والقول هنا للبغدادي ـ : (أصحابنا مجمعون على أفضلهم : الخلفاء الأربعة ثم الستة الباقون بعدهم إلى تمام العشرة وهم : طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنهم ، ثم البدريون ثم أصحاب أحد ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية[(٢)] .

وبعد هذه الأفضليات لا بدّ أن نتساءل عن أهم سمات الصحابة ، وأهم خصائصهم التي بوأتهم هذا المكان المرموق؟! .

يجيبنا عن هذا التساؤل المفكر الإسلامي الهندي وحيد الدين خان بقوله : (لقد ورد في القرآن قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ ﴾ [البقرة : ١٣٧] يتبين من هذه الآية أن

---

(١) للتوسع : الأجوبة العراقية للآلوسي : ٦١ ، فتح الباري : ١٧/٧ ، المغني في أبواب التوحيد للقاضي عبد الجبار : ١١٣/٢٠ ، الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم : ١١١/٤ ، وغيرها .

(٢) أصول الدين : ٣٠٤ ، وللتوسع : الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير : ١٨٣ .

أصحاب النبي ﷺ ليسوا إلا مسلمين يمثلون نماذج حقيقية للحق ، وأهم سمات الصحابة وخصائصهم :

١ـ لقد أحب الصحابة الدين أكثر من كل شيء :

ذكر القرآن الكريم أن الدين أَصبح عند الصحابة أحب وأثمن من كل شيء ، لذلك لم يعد الواحد منهم يهمّه بناء مستقبله ، بل أصبح همه الأول والأخير مستقبل الدين ، لذلك بذلوا أموالهم في سبيل الدين. . .

٢ـ عرفوا الرسول ﷺ قبل شهادة التاريخ له :

لقد شهدت الأزمنة القديمة في جميع أطوارها أن الناس استهزؤوا برسلهم وكفروا بهم ، لذلك كان الناس يحتفلون بالأنبياء الأقدمين ، وأما نبي الزمان فلم يكن نصيبه منهم إلا الاستهزاء والازدراء!! .

لذلك كفر اليهود بالمسيح عليه السلام على الرغم من إيمانهم بموسى عليه السلام ، وكذلك فقد رمت قريش الرسول ﷺ بالحجارة وأخرجته من مكة مع أنهم كانوا يفتخرون بأنهم ورثة إبراهيم عليه السلام!! .

وذلك لأن نبوة نبي الوقت تكون مثاراً للجدل والنزاع وتكون ستائر الالتباس مسدولة عليه ، ويضطر الإنسان للإيمان به إذا نظر إلى الحقيقة من وراء الستار ، ولا يؤمن به إلا ذلك الشخص الذي دفن أنانيته ، ويكون بذل الأموال في سبيله بذلاً في سبيل أمل لم تتحقق مصداقيته التاريخية .

ولكن هؤلاء الصحابة الكرام كانوا أناساً آمنوا برسولهم المعاصر كما يؤمن الناس بالرسل الأقدمين ، ففي غزوة الخندق وقد اشتد الحصار عليهم من كل مكان ، قال واحد من الصحابة : كان محمد ﷺ يعدنا

كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط!! .

نعم إنه وعد ، لكن الصحابة آمنوا بكل يقين وثقة بهذا الوعد ، وحتى قبل أن يتحقق ، وآمنوا بالرسول قبل أن يؤكد التاريخ صدق وعده .

٣ـ آمنوا بالقرآن في عهد الصراع :

حين تنزّل القرآن كان الكثير من الناس يقولون : إن هذا الكلام ليس غير حكايات وقصص ألّف فيما بينها محمد ﷺ : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال : ٣١] ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان : ٥] . وهكذا ، فمعرفة القرآن وقت نزوله إنما هي إطلالة على المستقبل في زمان الحال ، وإنما هي اعتراف بحقيقة قبل أن تثبت للجميع ، وفي هذه المرحلة كان من الصعب جداً أن يقدم هذا الكتاب ككتاب دعوة لأن ذلك يقتضي التفاني في عظمة الله والاعتراف بشخصية الرسول وإنكار الذات ، إنه الاعتراف بشخصية لم تلمع بعد في أفق التاريخ ، ولهذا جاء في القرآن الكريم : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ﴾ [الحديد : ١٠] .

٤ـ أنفقوا أموالهم في سبيل دين لم يظهر شأنه بعد :

روى ابن أبي حاتم قصة صحابي في الكلمات الآتية : (عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ [الحديد : ١١] قال أبو الدحداح الأنصاري رضي الله عنه : يا رسول الله إن الله ليريد منا القرض؟ قال : نعم يا أبا الدحداح ، قال : أرني يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده ، فقال : إني قد أقرضت ربي حائطي ـ وله حائط فيه ستمئة نخلة وأم الدحداح

فيه وعيالها ـ قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح ، قالت : لبيك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل ، فقالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها وصبيانها ، وإن رسول الله ﷺ قال : كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح)[1] .

هذه قضية نموذجية تدلنا على أن الصحابة كانوا فرحين بتقديم التضحيات في سبيل دين آمنوا به ، وإنفاق الأموال في سبيل دين لم يظهر بعد كان ضربٌ من الجنون!! لكن الصحابة فعلوا ذلك لأنهم دفنوا ذواتهم تحت حجارة أساس هذا الدين .

٥ـ آثروه على أنفسهم حتى في السيادة :

كان عبد الله بن أبيّ شيخ المنافقين من دهاة العرب ، ويتمتع بنفوذ كبير في المدينة ، ولما أراد أهل المدينة حسم جميع خلافاتهم ودعم وحدتهم ، انتخبوا عبد الله بن أبي ليجعلوه ملكاً عليهم ، ويلبسوه تاجاً رمزاً لاعترافهم به ملكاً ، وفي تلك الأثناء أرسل المسلمون من أهل المدينة وفداً ليقابلوا رسول الله ﷺ ، وكانت بيعة العقبة الثانية حيث عرضوا عليه نيابة عن جميع أهالي المدينة السيادة عليهم!! وليس هذا العمل بالشيء السهل ، بل إن نقل التاج من على رأس عبد الله بن أبيّ إلى رأس رسول الله ﷺ ـ وفي ذلك الزمان ـ يعدّ شيئاً غريباً ونادراً ، لأن انضواءهم تحت لواء رسول الله يعني الحرمان من كل شيء ، والعداوة والخصومة من كل الناس وخاصة المقربين منهم ، لكن المسألة تتلخص بالحب والتضحية والفداء .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٣/٤٤٨ .

٦ـ عرفوا حدودهم :

كان من عادة رسول الله ﷺ أنه كان يشاور أصحابه في دقيق الأمور وجليلها ، لكن الصحابة الأكارم كانوا يظلون صامتين حتى يقوم أبو بكر ويبدي رأيه ثم يقوم عمر ويبدي رأيه ، وهكذا حتى يُرى على وجه رسول الله السرور والارتياح ويكون الإجماع على رأي ما .

وعلى هذا المنوال سار الصحب الكرام بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى .

٧ـ تساموا عن الحقد والبغض :

في غزوة ذات السلاسل بعث رسول الله ﷺ كتيبة بقيادة عمرو بن العاص ، ولما وصلوا إلى المكان ظهر لهم أنهم قلّة ، فأرسل عمرو إلى رسول الله يطلب المدد .

فبعث رسول الله ﷺ كتيبة ثانية تحت قيادة أَبي عبيدة بن الجراح ، ولما التقت الكتيبتان ، قال عمرو : إن الكتيبة الثانية أتت لنجدة الكتيبة الأولى فأنا الذي أكون أميراً للجيش المؤلف من الكتيبتين ، وقال أبو عبيدة : بل أنا الأمير .

لكن لما اشتد الخلاف : قال أبو عبيدة : تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إلي رسول الله ﷺ أن قال : إذا قدمت على صاحبك فتطاوع ولا تختلف ، وإنك والله إن عصيتني لأطعتك!![1] .

ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى هذه الشخصية إلا إذا تسامى عن المقت والتذمر والحقد ، وعاش في الله لا في المطامع البشرية الحقيرة .

---

(١) رواه البيهقي وابن عساكر : [سيرة ابن كثير : ٢٩٩] .

٨ـ نصروا الدين أكثر مما بايعوا عليه :

يروي ابن هشام أن الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ في العقبة فقالوا : يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه آباءنا ونساءنا .

ومع ذلك ، لما وقعت معركة بدر (٢هـ) استشار رسول الله ﷺ الصحابة في لقاء العدو فتكلم المهاجرون ، ثم قام سعد بن معاذ فقال : يا رسول الله كأنك تشير إلينا! فقال رسول الله : نعم ، فقال سعد رضي الله عنه : فامض بنا لما أمرك الله إنك لو أمرتنا أن نخوض البحر لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد ، وسوف ترى منا ما تقرّ به عينك!! .

هذه مزية فريدة تمتع بها الصحابة الكرام ، إنهم لم يكونوا ملتزمين بالخروج إلى بدر ـ مسافة ٨٠ ميل عن المدينة ـ لكنهم ضحوا بكل ما يملكون في سبيل نشر دعوة الإسلام .

٩ـ التركيز على الهدف والابتعاد عن الاختلاف :

أخرج الطبراني عن المسور بن مخرمة قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقال : « إن الله بعثني رحمة للناس كافة فأدوا عني رحمكم الله ، ولا تختلفوا كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم ، فإنه دعاهم إلى مثل ما أدعوكم إليه ، فأما من بعد مكانه فكرهه ، فشكا عيسى بن مريم ذلك إلى الله عز وجل ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : نحن يا رسول الله نؤدي إليك فابعثنا حيث شئت » .

إن خشية الله ملأت قلوب الصحابة ، حتى نسوا وتناسوا الخلافات ، ووقفوا أنفسهم على أداء واجبهم ، ونشروا رسالة الإسلام

في البلاد العربية وفي خارجها ، وعلى النهج نفسه ساروا بعد انتقاله صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى .

١٠ـ اقتنعوا بالجلوس في مقعد خلفي :

على الرغم من الكم الهائل من التضحيات التي قدمها الأنصار أمام رسول الله وأمام المهاجرين رضوا بأن يجلسوا في المقعد الخلفي ، ووافقوا على أن يكون الخليفة من المهاجرين!! .

وكان هذا الموقف من الأنصار موقفاً رفيعاً واقعياً ، بحيث أدركوا هذه الحقيقة واقتنعوا بالتخلي عن الحكم والسيادة ، ولكن هذا النوع النادر من الواقعية يندر نظيره في تاريخ العالم .

١١ـ أعطوا الأمور قدرها وحقها :

في غزوة أُحد أخذ رسول الله ﷺ سيفه وقال : « من ذا الذي يأخذ هذا السيف بحقه؟ » فأقبل عليه بعض الناس ولكنه لم يمنح أحداً سيفه ، ثم أقبل (أبو دجانة) وسأل : يا رسول الله ما حق هذا السيف؟ .

فقال ﷺ : « أن تضرب به العدو حتى ينحني » فقال أبو دجانة : أنا آخذه يا رسول الله بحقه ، فأعطاه رسول الله سيفه ، وانقض تجاه العدو .

يروي ابن هشام أن أبا دجانة قال : رأيت إنساناً يحمش الناس حمشاً شديداً فصمدت له ، فلما حملت عليه السيف ولول ، فإذا امرأة ـ هند بنت عتبة ـ فأكرمت سيف رسول الله أن أضرب به امرأة!![١] .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٣/ ١٤ـ١٥ .

لقد أمسك عنان عواطفه ، والتزم الهدوء ، وتحكم بالنفس ، وأعطى الأمور حقها وقدرها .

١٢ـ ارتقوا ارتقاء الشجرة :

بحيث لم يقفزوا قفزات بهلوانية ليصلوا إلى الهدف ، إنما ساروا على طريق الصبر والجلد والمثابرة ، بعيداً عن الأهواء والعواطف المثيرة ، إنما انضووا ضمن خطط الله في إخراج الأحداث ، فكانوا بذلك الارتقاء الاجتماعي نموذجاً رفيعاً من العقل الواضح النيّر ، كما وصفهم الله بقوله :

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

وبهذه السمات استوى دين الله على عوده ، وقامت قائمته ، وأصبح حديقة دائمة نضرة وارفة الظلال ، لدرجة أنه لا يمكن الآن هدم هذا الدين ولو حاولت الدنيا كلها ذلك)[١] .

* * *

---

(١) بتصرّف واختصار شديد من كتاب : قضية البعث الإسلامي ، ترجمة محسن الندوي ، مراجعة الدكتور عبد الحليم عويس : ١٥٢ـ١١٦ .

obeikandl.com

الفصل الثاني

حديث القرآن الكريم عن فضائل الصحابة

عند متابعة آيات القرآن الكريم وهو يتحدث عن صحابة سيدنا رسول الله ﷺ ، نجد أن للصحابة الكرام من خلال المنظور القرآني فضائل كبيرة ومقاماً محموداً ، ذلك لأن خير الكلام كلام الله تعالى ، ثم لا بدّ من التوقف عند أسباب نزول بعض الآيات ، وعند أقوال بعض المفسرين ، لنتبين هذا الأمر بوضوح ، ونحن لن نستطيع الإحاطة بهذا الموضوع تفصيلاً وذلك لاتساع جوانبه ، لذلك سنكتفي ببعض هذه الأمور ثم سنشير إلى أهم المصادر والمراجع .

١ ـ في سورة البقرة :

نقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة : ٢٠٧] قال أبو الحسن علي الواحدي في أسباب نزول هذه الآية :

قال سعيد بن المسيب رحمه الله : أقبل صهيب رضي الله عنه مهاجراً نحو رسول الله ﷺ فاتبعه نفر من قريش من المشركين ، فنزل عن راحلته ونثر ما في كنانته وأخذ قوسه ثم قال : يا معشر قريش ، لقد

علمتم أني من أرماكم رجلاً ، وايم الله لا تصلون إليّ حتى أرمي بما في كنانتي ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ، ثم افعلوا ما شئتم ، فقالوا : دلنا على بيتك ومالك بمكة ونخلّي عنك ، وعاهدوه إن دلّهم أن يدعوه ، ففعل ، فلما قدم على رسول الله ﷺ قال : « أبا يحيى ربح البيع . ربح البيع » ، فأنزل الله هذه الآية .

وقال الحسن : أتدرون فيمن نزلت هذه الآية؟ في أن المسلم يلقى الكافر فيقول له : قل : لا إله إلا الله ، فإذا قلتها عصمت مالك ودمك ، فأبى أن يقولها ، فقال المسلم : والله لأشرين نفسي لله ، فتقدم فقاتل حتى قتل[1] .

وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) :

يعني جل ثناؤه : ومن الناس من يبيع نفسه بما وعد الله المجاهدين في سبيله ، وابتاع به أنفسهم بقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة : ١١١] وقد دللنا على أن معنى شرى باع في غير هذا الموضع بما أغنى عن إعادته ، وأما قوله : ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ فإنه يعني أن هذا الشاري يشري إذا اشترى طلب مرضاة الله ونصب ابتغاء بقوله يشري ، فكأنه قال : ومن الناس من يشري من أجل ابتغاء مرضاة الله ، ثم ترك من أجل وعمل فيه الفعل .

ثم اختلف أهل التأويل فيمن نزلت هذه الآية فيه ومن عني بها ، والذي هو أولى بظاهر هذه الآية من التأويل ، ما روي عن عمر بن الخطاب ، وعن عليّ بن أبي طالب ، وعن ابن عباس رضي الله عنهم ،

---

(١) أسباب نزول القرآن : ٥٨ـ٥٩ .

من أن يكون عني بها الآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر ، وذلك أن الله جل ثناؤه وصف صفة فريقين : أحدهما منافق يقول بلسانه خلاف ما في نفسه ، وإذا اقتدر على معصية الله ركبها ، وإذا لم يقتدر رامها ، وإذا نهي أخذته العزة بالإثم بما هو آثم ، والآخر منهما بائع نفسه طالب من الله رضا الله ، فكان الظاهر من التأويل أن الفريق الموصوف بأنه شرى نفسه لله ، وطلب رضاه ، إنما شراها للوثوب بالفريق الفاجر طلب رضا الله ، فهذا هو الأغلب الأظهر من تأويل هذه الآية .

. . . وإن الله عز وجل وصف شارياً نفسه ابتعاء مرضاته ، فكل من باع نفسه في طاعته حتى قتل فيها واستقتل ، وإن لم يقتل ، فمعنيّ بقوله : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة : ٢٠٧] في جهاد عدد المسلمين كان ذلك منه أو في أمر بمعروف ، أو نهيٌ عن منكر .

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة : ٢٠٧] : والله ذو رحمة واسعة بعبده الذي يشري نفسه له في جهاد من حادّه في أمره من أهل الشرك والفسوق ، وبغيره من عباده المؤمنين في عاجلهم وآجل معادهم ، فينجز لهم الثواب على ما أبلوا في طاعته في الدنيا ، ويسكنهم جناته على ماعملوا فيها من مرضاته[١] .

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٢/ ٣٣١ـ٣٣٢ ، وللتوسع يراجع : الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي : ١/ ٢٤٠ ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي : ١/ ١٦٦ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، تفسير البغوي : ١/ ١٨٠ ، فتح القدير للشوكاني : ١/ ٢٦٣ ، في ظلال القرآن لسيد قطب : ١/ ٢٠٣ ، التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي : ٢/ ٢٢٧ .

وبعد عدة آيات تطالعنا سورة البقرة بحديث آخر عن وصف الصحابة الكرام ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

وفي ذلك قال الإمام علاء الدين علي البغدادي الشهير بالخازن (ت٧٢٥هـ) رحمه الله : نزلت في عبد الله بن جحش وأصحابه رضي الله عنهم ، وذلك أن أصحاب السرية قالوا : يا رسول الله هل نؤجر على وجهنا هذا ونطمع أن يكون لنا غزو؟ فأنزل الله هذه الآية .

وعن جندب بن عبد الله قال : لما كان من أمر عبد الله بن جحش وأصحابه وأمر ابن الحضرمي ما كان ، قال بعض المسلمين : إن لم يكونوا أصابوا في سفرهم وزراً فليس لهم فيه أجر ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ [البقرة : ٢١٨] أي : فارقوا مساكنهم وعشائرهم وأموالهم وفارقوا مساكنة المشركين في أمصارهم ومجاورتهم في ديارهم فتحولوا عن المشركين وعن بلادهم إلى غيرها وجاهدوا ـ يعني المشركين ـ في سبيل الله . أي : في طاعة الله ، فجعل الله لأصحاب هذه السريّة جهاداً ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ ﴾ أي يطمعون في نيل رحمة الله ، أخبر أنهم على رجاء الرحمة ، وقيل : المراد من الرجاء هنا القطع في أصل الثواب ، وإنما دخل الظن في كميته ووقته .

قال قتادة : أثنى الله تعالى على أصحاب محمد ﷺ أحسن الثناء فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ ﴾ [البقرة : ٢١٨] هؤلاء هم خيار هذه الأمة ، ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون ، وأنه من رجا طلب ومن خاف هرب ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ ﴾ أي لذنوب عباده ﴿ رَّحِيمٞ ﴾ بهم ، والمعنى أنه تعالى غفر

لعبد الله بن جحش وأصحابه ما لم يعلموا به[1] .

ويمكن إضافة آية أخرى من سورة البقرة ، وهي تتحدث عن صفات الأمة الإسلامية ، لكن بعض العلماء قالوا إنها تختص بالصحابة الكرام ـ والله أعلم ـ وهي قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الكلبي : كان رجال من أصحاب رسول الله ﷺ قد ماتوا على القبلة الأولى منهم أسعد بن زُرارة ، وأبو أمامة أَحَدُ بني النجار ، والبراء بن معرور أحد بني سلمة ، وأناس آخرون ، جاءت عشائرهم فقالوا : يا رسول الله توفي إخواننا وهم يصلون إلى القبلة الأولى ، وقد صرفك الله تعالى إلى قبلة إبراهيم عليه السلام ، فكيف بإخواننا؟ فأنزل الله هذه الآية[2] .

٢ـ في سورة آل عمران :

تتحدث السورة في أكثر من آية عن بعض السمات والفضائل التي تحلّى بها صحابة رسول الله ﷺ وهي بذلك تشارك السور الأخرى في

---

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل : ١/ ٢٠٧ ، وللتوسع يراجع :
تفسير البغوي : ١/ ١٩٢ ، فتح القدير للشوكاني : ١/ ٢٧٥ ، تفسير النسفي : ١/ ١٧٢ ، في ظلال القرآن : ١/ ٢٢٠ ، التفسير المنير للدكتور الزحيلي : ٢/ ٢٦١ .

(٢) أسباب نزول القرآن للواحدي : ٣٩ ، وللتوسع يراجع :
أسباب النزول للسيوطي : ٣٤ ، الدر المنثور للسيوطي : ١/ ١٤٦ ، تفسير الطبري : ٣/ ١٦٧ ، زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي : ١/ ١٤٠ .

تقرير هذا الحال الذي يرضي الله ورسوله ، من ذلك قول الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وهناك خلاف في شأن هذه الآية! قال بعض العلماء إنها تخصّ صحابة رسول الله ﷺ ، وقال آخرون بل هي عامة لجميع الأمة الإسلامية ـ والله أعلم ـ .

قال عكرمة ومقاتل : نزلت فيَ ابن مسعود ، وأبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وذلك أن مالك بن الضَّيف ، ووهب بن يهوذا اليهوديين قالا لهم : إن ديننا خير مما تدعوننا إليه ، ونحن خير وأفضل منكم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية[١] .

وقال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت٥١٦هـ) رحمه الله : وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] هم الذين هاجروا مع النبي ﷺ إلى المدينة .

وقال جُويبر عن الضحاك : هم أصحاب محمد ﷺ خاصة الرواة والدعاة الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم .

ورُوي عن عمر بن الخطاب قال : كنتم خير أمة أخرجت للناس تكون لأولنا ولا تكون لآخرنا[٢] .

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي : ١١٣ـ١١٤ .

(٢) معالم التنزيل ـ تفسير البغوي ـ : ١/٣٤١ ، وللتوسع يراجع : =

ثم تحدثنا السورة الكريمة عن مزيّة أخرى لصحابة رسول الله ﷺ فيقول الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴾

[آل عمران : ١٧٢ـ١٧٤] .

وفي أسباب نزول هذه الآيات قال الإمام السيوطي (ت٩١١هـ) رحمه الله :

أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال : إن الله قذف الرعب في قلب أَبي سفيان يوم أُحد بعد الذي كان منه فرجع إلى مكة .

فقال النبي ﷺ : إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب ، وكانت وقعة أُحد في شوّال ، وكان التجار يقدمون المدينة في ذي القعدة ، فينزلون ببدر الصغرى ، وإنهم قدموا بعد وقعة أُحد وكان أصاب المؤمنين القرح ، واشتكوا ذلك إلى النبي ﷺ ، واشتد عليهم الذي أصابهم ، فندب النبي ﷺ الناس لينطلقوا معه ، ويتبعوا ما كانوا متبعين ، وقال : إنما يرتحلون الآن ، فيأتون الحج ولا يقدرون على مثلها حتى عام مقبل ، فجاء الشيطان فخوّف أولياءه ، فقال : إن الناس قد جمعوا لكم ، فأبى عليه الناس أن يتبعوه ، فقال : إني ذاهب وإن لم يتبعني أحد ، فانتدب معه أَبو بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير وسعد وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين

= الدر المنثور للسيوطي : ٢/ ٦٣ ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري : ٧/ ١٠١ .

رجلاً ، فساروا في طلب أبي سفيان فطلبوه حتى بلغوا الصّفراء ، فأنزل الله هذه الآيات .

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما رجع المشركون من أحد قالوا : لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم ، بئس ما صنعتم ارجعوا ، فسمع رسول الله بذلك ، فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد أو بئر أبي عتبة ، فقال المشركون : نرجع قابل ، فرجع النبي ﷺ ، فكانت تعدّ غزوة ، فأنزل الله : ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [آل عمران: ١٧٢] وقد كان أبو سفيان قال للنبي ﷺ : موعدك موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا ، فأما الجبان فرجع ، وأما الشجاع فأخذ أهبة القتال والتجارة ، فأتوه فلم يجدوا به أحداً وتسوّقوا ، فأنزل الله : ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[1] . [آل عمران: ١٧٤] .

إذن :

المناسبة هي معركة أحد ، وما كان بعدها من غزوة بدر الصغرى ، وغزوة حمراء الأسد والذين حضروا مع رسول الله ﷺ هم الصحابة الأكارم ، لذلك فالوصف القرآني هنا هو مختص بصحابة رسول الله ﷺ .

وفي ذلك يقول الدكتور وهبة الزحيلي حفظه الله تعالى :

. . . ثم وصفهم الله بحسن أعمالهم الذي هو سبب زيادة ثوابهم ، فأخبر تعالى أن هؤلاء المجاهدين الذين استجابوا لدعوة النبي ﷺ بالذهاب للقاء أبي سفيان في غزوة حمراء الأسد عقب غزوة أحد ،

---

(١) أَسباب النزول : ٩٠ـ٩١ .

بالرغم مما كانوا عليه من جراح وآلام أصابتهم يوم أحد ، فلهم أجر عظيم يتناسب مع جهادهم وشجاعتهم .

وأشار بقوله : ﴿منهم﴾ إلى أن من استجاب حظي بهذا الفضل والأجر ، وأما الباقون فكانت لهم موانع وأعذار في أنفسهم وأهليهم .

ثم أشاد تعالى أيضاً بمن شارك في غزوة بدر الصغرى في العام المقبل بعد أحد ، بالرغم مما قال لهم الناس : أي نعيم بن مسعود الأشجعي الذي كان ما يزال مشركاً : إن الناس أي أبا سفيان وأعوانه جمعوا لكم الجموع لقتالكم ، فاخشوهم وخافوهم ، ولا تخرجوا إليهم .

فزادهم هذا القول إيماناً بالله وثقة بوعده ، وثباتاً على دينه ، إذ إنهم خافوه ، ولم يخافوا تلك الجموع ، واعتمدوا على تأييد الله وعونه ونصره ، بعد أن صدقت نياتهم ، واشتدت عزائمهم للقاء المشركين مهما كانت النتائج ، وذلك مثل قوله تعالى في وصف المؤمنين في غزوة الخندق (الأحزاب) :

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٢٢] .

وقالوا معبّرين عن صدق إيمانهم بالله : الله كافينا ما يهمنا من أمر الجموع ، ونعم الوكيل الذي فوضنا أمورنا إليه ، نعم المولى ونعم النصير ، وهي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قال أحد الناس : إن الناس (المشركين) قد جمعوا لكم فاخشوهم ، ويستحب قولها عند الغمّ والمصيبة وإحاطة الداهية .

أخرج ابن أبي الدنيا عن عائشة رضي الله عنها : « أن النبي ﷺ كان

إذا اشتد غمه ، مسح بيده على رأسه ولحيته ثم تنفّس الصعداء ، وقال : حسبي الله ونعم الوكيل » .

ولما فوضوا أمورهم إلى الله واتكلوا عليه ، عادوا بأربعة جزاءات : النعمة من الله ، والفضل ، وصرف السوء ، واتباع ما يرضي الله فرضي عنهم ، أي لما توكلوا على الله وخرجوا للقاء عدوهم ، كفاهم ما أهمهم ، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم ، وربحوا في تجارتهم ، ولم يصبهم قتل ولا أذى ، واتصفوا بطاعة رسولهم ورضا ربهم الذي هو أساس النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة ، والله صاحب الفضل العظيم عليهم إذ تفضل عليهم بزيادة الإيمان ، والتوفيق إلى الجهاد ، والحفظ من السوء الذي يضمره لهم عدوهم .

وفي هذا إشارة إلى خسارة القاعدين المتخلفين ، إذ حرموا ما حظي به غيرهم ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ ﴾ .

[آل عمران: ١٧٤] .

روى البيهقي عن ابن عباس في قول الله : ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ ﴾ قال : « النعمة : أنهم سلموا ، والفضل : أن عيراً مرت في أيام الموسم ، فاشتراها رسول الله ﷺ ، فربح فيها مالاً ، فقسمه بين أصحابه » .

وأخرج الطبراني عن السدي قال : (أعطى رسول الله ﷺ حين خرج في بدر الصغرى أصحابه دراهم ، ابتاعوا بها في الموسم ، فأصابوا ربحاً كثيراً)[١] .

---

(١) التفسير المنير : ٤/١٦٦ ، وللتوسع يراجع :
تفسير النسفي : ١/٢٩٠ ، تفسير الطبري : ٧/٤١٠ ، الدر المنثور للسيوطي : ٢/١٠٣ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ١/٤٢٨ ، تفسير البغوي : ١/٣٧٢ ، فتح القدير للشوكاني : ١/٥٠٤ ، في ظلال القرآن : ١/٤٥٧ .

ثم تحدثنا السورة عن مزايا أخرى للصحابة الكرام ، وذلك من خلال عرض نماذج من تضرعهم والتجائهم إلى الله سبحانه وتعالى ، ثم عن كيفية جزاء الله لهم ، قال تعالى :

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

وقد تحدث الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ كثيراً عن هذه الآية ، ومما قاله :

المسألة الرابعة عشرة : قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي : أجابهم ، قال الحسن : ما زالوا يقولون ربنا ربنا حتى استجاب لهم ، وقال جعفر الصادق : من حزبه أمرٌ فقال خمس مرات ربنا أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد ، قيل : وكيف ذلك؟ قال : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : ١٩١ـ١٩٤] .

الخامسة عشرة ـ قوله تعالى ﴿أَنِّي﴾ أي بأني ، وقرأ عيسى بن عمر (إني) بكسر الهمز ، أي فقال : إني ، وروى الحاكم أبو عبد الله في صحيحه عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله ، ألا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ

أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ وأخرجه الترمذي ، ودخلت ﴿من﴾ للتأكيد ، لأن قبلها حرف نفي ؛ وقال الكوفيون : هي للتفسير ولا يجوز حذفها ، لأنها دخلت لمعنى لا يصلح الكلام إلا به ، وإنما تحذف إذا كان تأكيداً للجحد ، ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ ابتداء وخبر ، أي دينكم واحد ، وقيل : بعضكم من بعض في الثواب والأحكام والنصرة وشبه ذلك ، وقال الضحاك : رجالكم شكل نسائكم في الطاعة ، ونساؤكم شكل رجالكم في الطاعة ، نظيرها قوله عز وجل : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : ٧١] .

ويقال : فلان منّي ، أي على مذهبي وخلقي .

السادسة عشرة : قوله تعالى : ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] ابتداء وخبر ، أي هجروا أوطانهم وساروا إلى المدينة ﴿ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [آل عمران : ١٩٥] في طاعة الله عز وجل ، ﴿ وَقَٰتَلُواْ﴾ أي وقاتلوا أعدائي ، ﴿ وَقُتِلُواْ ﴾ أي في سبيلي ، وقرأ ابن كثير وابن عامر : (وقاتلوا وقُتِّلوا) على التكثير ، وقرأ الأعمش : (وقتلوا وقاتلوا) لأن الواو لا تدل على أن الثاني بعد الأول ، وقيل : في الكلام إضمار قد ، أي قتلوا وقد قاتلوا ، ومنه قول الشاعر :

تصابى وأمسىٰ عَلاهُ الكبر

أي وقد علاه الكبر ، وقيل : أي وقد قاتل من بقي منهم ، تقول العرب : قتلنا بني تميم ، إنما قتل بعضهم ، وقال امرؤ القيس :

فإن تقتلونا نقتّلكُمُ

وقرأ عمر بن عبد العزيز : (وقَتَلوا وقُتِلُوا) خفيفة بغير ألف ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩٥] أي لأسترنّها عليهم في

الآخرة ، فلا أوبّخهم بها ولا أُعاقبهم عليها ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد عند البصريين ، لأن معنى ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لأثيبنهم ثواباً ، الكسائي : انتصب على القطع ، الفراء : على التفسير ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أي حسن الجزاء ، وهو ما يرجع على العامل من جراء عمله ، من ثاب يثوب[(١)] .

٣ـ في سورة المائدة :

تحدثنا السورة عن صفة رائعة وجميلة وهي صفة لا يبلغها إلا صفوة من البشر يختارهم الله تعالى ليكونوا قدوة للأجيال ، وهي صفة الحب المتبادل بين العبد وربه ، وقد تحدث العلامة جلال الدين محمد بن أحمد المحلي رحمه الله أن هذه صفة تختص بصحابة رسول الله ﷺ ناقلاً ذلك عن الحاكم في صحيحه[(٢)] .

قال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة : ٥٤] .

وفي العيش تحت ظلال هذه الآية يقول سيد قطب (ت١٣٨٧هـ) رحمه الله : إن اختيار الله للعصبة المؤمنة ، لتكون أداة القدر الإلهي في إقرار دين الله في الأرض ، وتمكين سلطانه في حياة البشر ، وتحكيم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٤/٢٠٢ـ٢٠٣ ، وللتوسع يراجع :
أسباب نزول القرآن للواحدي : ١٣٣ ، الدر المنثور للسيوطي : ٢/١١٢ ، تفسير البغوي : ١/٣٨٦ ، تفسير النسفي : ١/٣٠١ ، تفسير الطبري : ٧/١٩٩ ، فتح القدير : ١/٥١٩ .

(٢) تفسير الجلالين : ١١٨ .

obeikandi.com

منهجه في أوضاعهم وأنظمتهم ، وتنفيذ شريعته في أقضيتهم وأحوالهم ، وتحقيق الصلاح والخير والطهارة والنماء في الأرض بذلك المنهج وبهذه الشريعة ، إن هذا الاختيار للنهوض بهذا الأمر هو مجرد فضل الله ومنته ، فمن شاء أن يرفض هذا الفضل وأن يحرم نفسه هذه المنة ، فهو وذاك ، والله غني عنه وعن العالمين ، والله يختار من عباده من يعلم أنه أهل لذلك الفضل العظيم .

والصورة التي يرسمها للعصبة المختارة هنا ، صورة واضحة السمات قوية الملامح ، وضيئة جذابة حبيبة للقلوب : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤] فالحب والرضا المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم ، الحب ، هذا الروح الساري اللطيف الرفاف المشرق الرائق البشوش ، هو الذي يربط القوم بربهم الودود .

وحب الله لعبد من عبيده ، أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله سبحانه بصفاته كما وصف نفسه ، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره وكينونته كلها . أجل لا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقة المعطي ، الذي يعرف من هو الله ، من هو صانع هذا الكون الهائل ، وصانع الإنسان الذي يلخص الكون وهو جرم صغير! من هو في عظمته ، ومن هو في قدرته ، ومن هو في تفرده ، ومن هو في ملكوته ، من هو ومن هذا العبد الذي يتفضل الله عليه منه بالحب ، والعبد من صنع يديه سبحانه ، وهو الجليل العظيم ، الحي الدائم ، الأزلي الأبدي ، الأول والآخر والظاهر والباطن .

وحب العبد لربه نعمته لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاقها ، وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمراً هائلاً عظيماً ، وفضلاً غامراً جزيلاً ، فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبّه وتعريفه هذا المذاق

الجميل الفريد ، الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها ولا شبيه ، هو إنعام هائل عظيم ، وفضل غامر جزيل .

وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمراً فوق التعبير أن يصفه ، فإن حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا في فلتات قليلة من كلام المحبين ، وهذا هو الباب الذي تفوق فيه الواصلون من رجال التصوف الصادقين ـ وهم قليل من بين ذلك الحشد الذي يلبس مسوح التصوف ويعرف في سجلهم الطويل ـ .

وهذا الحب من الجليل للعبد من العبيد ، والحب من العبد للمنعم المتفضل ، يشيع في هذا الوجود ويسري في هذا الكون العريض ، وينطبع في كل حي وفي كل شيء ، فإذا هو جو وظل يغمران هذا الوجود ، ويغمران الوجود الإنساني كله ممثلاً في ذلك العبد المحب المحبوب . والتصور الإسلامي يربط بين المؤمن وربه بهذا الرباط العجيب الحبيب ، وليست مرة واحدة ولا فلتة عابرة ، إنما هو أصل وحقيقة وعنصر في هذا التصور أصيل : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم : ٩٦] ، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ [هود : ٩٠] ، ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ [البروج : ١٤] ، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة : ١٦٥] ، ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] وغيرها كثير ، وعجباً لقوم يمرون على هذا كله ، ليقولوا : إن التصور الإسلامي تصور جاف عنيف ، يصور العلاقة بين الله والإنسان علاقة قهر وقسر ، وعذاب وعقاب ، وجفوة وانقطاع ، لا كالتصور الذي يجعل المسيح ابن الله وأقنوم الإله ، فيربط بين الله والناس ، في هذا الازدواج! إن نصاعة التصور الإسلامي في الفصل بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، لا تجفف ذلك الندى

الحبيب ، بين الله والعبيد ، فهي علاقة الرحمة كما أنها علاقة العدل ، وهي علاقة الودّ كما أنها علاقة التجريد ، هي علاقة الحب كما أنها علاقة التنزيه ، إنه التصور الكامل الشامل لكل حاجات الكينونة البشرية في علاقتها برب العالمين .

وهنا ـ في صفة العصبة المؤمنة المختارة لهذا الدين ـ يرد ذلك النص العجيب ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤] ويطلق شحنته كلها في هذا الجو ، الذي يحتاج إليه القلب المؤمن ، وهو يضطلع بهذا العبء الشاق ، شاعراً أنه الاختيار والتفضل والقربى من المنعم الجليل ، ثم يمضي السياق يعرض بقية السمات :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] وهي صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين ، فالمؤمن ذلول للمؤمن ، غير عصيّ عليه ولا صعب ، هين لين ، ميسر مستجيب ، سمح ودود ، وهذه هي الذلة للمؤمنين ، وما في الذلة للمؤمنين من مذلة ولا مهانة ، إنما هي الأخوة ، ترفع الحواجز ، وتزيل التكلف وتخلط النفس بالنفس ، فلا يبقى فيها ما يستعصي وما يحتجز دون الآخرين .

إن حساسية الفرد بذاته متحوصلة متحيزة هي التي تجعله شموساً عصياً شحيحاً على أخيه ، فأما حين يخلط نفسه بنفوس العصبة المؤمنة معه ، فلن يجد فيها ما يمنعه وما يستعصي به ، وماذا يبقى له في نفسه دونهم ، وقد اجتمعوا في الله إخواناً ، يحبهم ويحبونه ، ويشيع هذا الحب العلوي بينهم ويتقاسمونه؟! .

﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] : فيهم على الكافرين شِماس وإباء واستعلاء ، ولهذه الخصائص هنا موضع ، إنها ليست العزة للذات ، ولا الاستعلاء للنفس ، إنما هي العزة للعقيدة ، والاستعلاء للراية التي

يقفون تحتها في مواجهة الكافرين ، إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير ، وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذي معهم لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين وما عند الآخرين! ثم هي الثقة بغلبة دين الله على دين الهوى ، وبغلبة قوة الله على تلك القوى ، وبغلبة حزب الله على أحزاب الجاهلية ، فهم الأعلون حتى وهم ينهزمون في بعض المعارك ، في أثناء الطريق الطويل .

﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ﴾ [المائدة : ٥٤] : فالجهاد في سبيل الله ، لإقرار منهج الله في الأرض ، وإعلان سلطانه على البشر ، وتحكيم شريعته في الحياة ، لتحقيق الخير والصلاح والنماء للناس ، هي صفة العصبة المؤمنة التي يختارها الله ليصنع بها في الأرض ما يريد ، وهم يجاهدون في سبيل الله ، لا في سبيل أنفسهم ، ولا في سبيل قومهم ، ولا في سبيل وطنهم ، ولا في سبيل جنسهم ، في سبيل الله ، لتحقيق منهج الله ، وتقرير سلطانه ، وتنفيذ شريعته ، وتحقيق الخير للبشر عامة من هذا الطريق ، وليس لهم في هذا الأمر شيء ، وليس لأنفسهم من هذا حظ ، إنما هو لله وفي سبيل الله بلا شريك .

وهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، وفيم الخوف من لوم الناس ، وهم قد ضمنوا حب رب الناس؟ وفيم الوقوف عند مألوف الناس ، وعرف الجيل ، ومتعارف الجاهلية ، وهم يتبعون سنة الله ، ويعرضون منهج الله للحياة؟ إنما يخشى لوم الناس من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس ، ومن يستمد عونه ومدده من عند الناس ، أما من يرجع إلى موازين الله ومقاييسه وقيمه ليجعلها تسيطر على أهواء الناس وشهواتهم وقيمهم ، وأما من يستمد قوته وعزته من قوة الله وعزته ، فما يبالي ما يقول الناس وما يفعلون ، كائناً هؤلاء

الناس من كانوا ، وكائناً واقع هؤلاء الناس ما كان ، وكائنة حضارة هؤلاء الناس وعلمهم وثقافتهم ما تكون! .

إننا نحسب حساباً لما يقول الناس ، ولما يفعل الناس ، ولما يملك الناس ، ولما يصطلح عليه الناس ، ولما يتخذه الناس في واقع حياتهم من قيم واعتبارات وموازين ، لأننا نغفل أو نسهو عن الأصل الذي يجب أن نرجع إليه في الوزن والقياس والتقويم ، إنه منهج الله وشريعته وحكمه ، فهو وحده الحق وكل ما خالفه فهو باطل ، ولو كان عرف الملايين ، ولو أقرته الأجيال في عشرات القرون! .

إنه ليس قيمة أي وضع ، أو أي عرف ، أو أي تقليد ، أو أية قيمة ، أنه موجود ، وأنه واقع ، وأن ملايين البشر يعتنقونه ، ويعيشون به ، ويتخذونه قاعدة حياتهم ، فهذا ميزان لا يعترف به التصور الإسلامي ، إنما قيمة أي وضع ، وأي عرف ، وأي تقليد ، وأية قيمة ، أن يكون لها أصل في منهج الله ، الذي منه ـ وحده ـ تستمد القيمة والموازين .

ومن هنا تجاهد العصبة المؤمنة في سبيل الله ولا تخاف لومة لائم ، فهذه سمة المؤمنين المختارين ، ثم إن ذلك الاختيار من الله ، وذلك الحب المتبادل بينه وبين المختارين ، وتلك السمات التي يجعلها طابعهم وعنوانهم ، وهذا الاطمئنان إلى الله في نفوسهم ، والسير على هداه في جهادهم ، وذلك كله من فضل الله ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة : ٥٤] يعطي عن سعة ، ويعطي عن علم ، وما أوسع هذا العطاء ، الذي يختار الله له من يشاء عن علم وعن تقدير[١] .

---

(١) في ظلال القرآن : المجلد الثاني : ٩١٧ـ٩٢٠ .

٤ـ في سورة الأنعام :

تحدثنا السورة حديثاً مطولاً عن صفات صحابة رسول الله ﷺ ، فهم الجماعة الذين يخافون الله ويخشونه ، وهم الذين يريدون بأعمالهم وجه الله ورضاه .

لذلك جاء أمر الله إلى نبيه محمد ﷺ أن تكون علاقته مع الصحابة ـ ولا سيما الضعاف الذين أسلموا في بداية الدعوة ـ علاقة لا تبلغها أي علاقة في الكون ، ذلك لأنهم هم نواة المجتمع المسلم ، هم الأساس الذي قامت عليه قواعد المجتمع ، هم الذين آمنوا بالدين الحنيف لا طمعاً بمال أو غنيمة أو فيء أو خَرَاج أو مناصب ، إنما آمنوا لأنهم رأوا في هذا الدين الخلاص لجميع بني الإنسان ، قال الله تعالى :

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : ٥١ـ٥٤] .

وفي تفسير هذه الآيات يقول الإمام أبو عبد الله محمد القرطبي رحمه الله تعالى : قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾ أي بالقرآن ، والإنذار : الإعلام ، وقيل : ﴿به﴾ أي بالله ، وقيل : باليوم الآخر ، وخصّت ﴿ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ ﴾ لأن الحجّة عليهم أوجب ، فهم خائفون من عذابه ، لا أنهم يتردّدون في الحشر ، فالمعنى (يخافون) يتوقعون

عذاب الحشر ، وقيل : (يخافون) يعلمون ، فإن كان مسلماً أنذر ليترك المعاصي ، وإن كان من أهل الكتاب أنذر ليتبع الحق ، وقال الحسن : المراد المؤمنون ، قال الزجاج : كل من أقر بالبعث من مؤمن وكافر ، وقيل : الآية في المشركين أي أنذرهم بيوم القيامة ، والأول أظهر ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ أي من غير الله ﴿ شَفِيعٌ ﴾ هذا ردّ على اليهود والنصارى في زعمهما أن أباهما يشفع لهما حيث قالوا ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة : ١٨] والمشركون حيث جعلوا أصنامهم شفعاء لهم عند الله ، فأعلم الله أن الشفاعة لا تكون للكفار ، ومن قال الآية في المؤمنين قال : شفاعة الرسول لهم تكون بإذن الله فهو الشفيع حقيقة إذن ، وفي التنزيل : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ، ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ : ٢٣] ، ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي في المستقبل ، وهو الثبات على الإيمان .

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ [الأنعام: ٥٢] قال المشركون : ولا نرضى بمجالسة أمثال هؤلاء ـ يعنون سلمان وصُهيباً وبلالاً وخبّاباً ـ فاطردهم عنك ، وطلبوا أن يكتب لهم بذلك ، فهمَّ النبي ﷺ بذلك ، ودعا علياً ليكتب ، فقام الفقراء وجلسوا ناحية ، فأنزل الله الآية .

ولهذا أشار سعد بقوله في الحديث الصحيح : فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، وكان النبي ﷺ إنما مال إلى ذلك طمعاً في إسلامهم وإسلام قومهم ، ورأى أن ذلك لا يفوّت أصحابه شيئاً ، ولا ينقص لهم قدراً ، فمال إليه فأنزل الله الآية ، فنهاه عما همّ به من الطرد لا أنه أوقع الطرد ، روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من

هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢] قيل : المراد بالدعاء المحافظة على الصلاة المكتوبة في الجماعة ، قاله ابن عباس ومجاهد والحسن ، وقيل : الذكر وقراءة القرآن ، ويحتمل أن يريد الدعاء في أول النهار وآخره ، ليستفتحوا يومهم بالدعاء رغبة في التوفيق ، ويختموه طلباً للمغفرة .

﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ أي طاعته ، والإخلاص فيها ، أي يخلصون في عبادتهم وأعمالهم لله ، ويتوجهون بذلك إليه لا لغيره ، وقيل : يريدون الله الموصوف بأن له الوجه ، كما قال : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٧] وهو كقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ [الرعد : ٢٢] وخصّ الغداة والعشيّ بالذكر ، لأن الشغل أعمل ، وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يصبر نفسه معهم كما أمره الله في قوله : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف : ٢٨] فكان لا يقوم حتى يكونوا هم الذين يبتدئون القيام ، وقد أخرج هذا المعنى مبيناً مكملاً ابن ماجه في سننه عن خبّاب في قول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢] قال : جاء الأقرع بن حابس التميمي وعُيينة بن حصن الفزاريّ فوجدا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمّار وخباب ، قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حول النبي حقروهم ، فأتوه فخلوا به وقالوا : إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرفُ لنا به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبُد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك ، فإذا نحن

فرغنا فاقعد معهم إن شئت ، قال : (نعم) . قالوا : فاكتب لنا عليك كتاباً ، قال : فدعا بصحيفة ودعا علياً رضي الله عنه ليكتب ونحن قعود في ناحية ، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ ومعنى سلام عليكم : سلمكم الله في دينكم وأنفسكم ، نزلت في الذين نهى الله نبيه عليه الصلاة والسلام عن طردهم ، فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام ، وقال : « الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام » ، فعلى هذا كان السلام من جهة النبي ﷺ ، وقيل : إنه كان من جهة الله تعالى ، أي أبلغهم منا السلام ، وعلى الوجهين ففيه دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى .

وفي صحيح مسلم عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال ونفر فقالوا : والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها ، قال : فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ .

فأتى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : « يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك » فأتاهم أبو بكر فقال : يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا : لا ، يغفر الله لك يا أخي ، فهذا دليل على رفعة منازلهم وحرمتهم كما بيناه في معنى الآية ، ويستفاد من هذا احترام الصالحين واجتناب ما يغضبهم أو يؤذيهم ، فإن في ذلك غضب الله ، أي حلول عقابه بمن آذى أحداً من أوليائه[1] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٦/٢٧٦ـ٢٨٠ ، وللتوسع يراجع :
الدر المنثور للسيوطي : ٣/١٢ ، أسباب النزول للسيوطي : ١٦٠ ، تفسير الخازن : ٢/١٣٦ ، تفسير البغوي : ٢/١٠٠ ، تفسير النسفي : ١/١٢ ، فتح =

٥ـ في سورة الأنفال :

يوجه القرآن الكريم رسول الله ﷺ إلى التمسك بالرعيل الأول وخاصةً الذين آمنوا في بداية الدعوة ، فيقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٤] .

وسبب نزول هذه الآية كما يرى الإمام السيوطي رحمه الله تعالى هو : روى البزار من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم قال : لما أسلم عمر رضي الله عنه قال المشركون : قد انتصف القوم منا اليوم ، وأنزل الله هذه الآية .

وأخرج الطبراني وغيره من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أسلم مع النبي ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً وامرأةً ، ثم إن عمر رضي الله عنه أسلم فصاروا أربعين ، نزلت هذه الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ، ثم أسلم مع النبي عمر رضي الله عنه ، نزلت هذه الآية .

وقال المفسرون : في ذلك إشارة واضحة إلى رعاية الله لهم ، وحفظه لهم ، وكفايته لهم ، مقروناً ذلك برعاية الله وحفظه وكفايته لرسوله ﷺ[(١)] .

= القدير : ١٤٨/٢ ، تفسير الطبري : ٢٠٢/٧ ، التفسير المنير للزحيلي : ٢٢٣/٧ .

(١) للتوسع في تفسير معاني هذه الآية وبيانها ، يراجع :
أسباب النزول للسيوطي : ١٨٣ ، أسباب نزول القرآن للواحدي : ٢٣٤ ، روح المعاني للآلوسي : ٣٠/١٠ ، تفسير أبي السعود : ٣٣/٤ ، تفسير البغوي : =

obeikandl.com

وبعد عدة آيات ، يأتي قرار الله تعالى ليؤكد حقيقة إيمان الصحابة الكرام ، ذلك الإيمان الحق الذي جعل الواحد منهم ينفق كل ما يملكه من غالٍ ونفيس في سبيل نشر دعوة الله سبحانه وتعالى .

ثم يبين الله تعالى الجزاء الذي أعدّه لهم ، وهو المغفرة في الآخرة ، والرزق في الدنيا ، يقول الله تعالى في ذلك :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٤] .

وفي التعليق على هذه الصفة الرائعة للمهاجرين والأنصار يقول الدكتور الزحيلي : .. وأما الصنف الثاني فهم المشار إليهم بقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ ﴾ أي آووا الرسول والمهاجرين إليهم ، ونصروهم ، فكانت المدينة عاصمة الإسلام ومنطلق الدعوة في أرجاء الأرض ، وملجأ المهاجرين الذين عملوا مع الأنصار على نصرة دين الله والقتال معهم ، وشارك هؤلاء أولئك في أموالهم ، وآثروهم على أنفسهم ، فكانوا في الفضل بعد الصنف الأول .

ثم وصف الله الصنفين بأن بعضهم أولياء بعض ، أي يتولى بعضهم أمر الآخر كما يتولى أمر نفسه ، ويكون كل منهم أحق بالآخر من كل أحد ، لأن حقوقهم ومصالحهم مشتركة ، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، كل اثنين أخوان ، فكانوا يتوارثون بهذا الإخاء إرثاً مقدماً على القرابة ، حتى تقوّى المهاجرون بالتجارة وغيرها ، فنسخ الله تعالى ذلك بالمواريث ، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس ، وروى الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه

= ٢/ ٢٦٠ ، تفسير النسفي : ٢/ ١٥٩ ، في ظلال القرآن : ٣/ ١٥٣٦ ، فتح القدير للشوكاني : ٢/ ٤٠٣ ، التفسير المنير للزحيلي : ١٠/ ٥٩ .

قال : قال رسول الله ﷺ : « المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض ، والطلقاء من قريش ، والعتقاء من ثقيف ، بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة » لكن تفرد به أحمد .

فكان الإرث بين المهاجرين والأنصار بالإسلام والهجرة دون القرابة ، فالمسلم في غير المدينة لا يرث المسلم الذي في المدينة وما حولها إلا إذا هاجر إليها ، فيرث ممن بينه وبينه إخاء .

وهكذا فالولاية بين المهاجرين والأنصار عامة في الحرب والإرث وكل أوجه العلاقة بينهم وبين الكفار ، قال أبو بكر الأصمّ : الآية محكمة غير منسوخة ، والمراد بالولاية : النصرة والمظاهرة .

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار ، في غيرما آية في كتابه ، لتضامنهم وتناصرهم ، كما في سورة التوبة :/١٠٠ ، و/١١٧/ ، وسورة الحشر : /٨ـ٩/ وظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لا يختلفون في ذلك ، كما ذكر ابن كثير ، ولهذا روى أبو بكر البزار في مسنده عن حذيفة قال : خيرني رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة ، فاخترت الهجرة[1] .

٦ـ في سورة التوبة :

حديث مطول عن فضائل الصحابة الكرام وما امتازوا به ، وفي أكثر من موضع .

فتارة يأتي الحديث عن المهاجرين وما هي البشارات التي قدّمها الله سبحانه لهم .

---

(١) التفسير المنير : ١٠ ـ ٨١ ـ ٨٣ .

وتارة يكون الحديث عن رحلة الهجرة وكيف كان حال بعض الصحابة حول رسول الله ﷺ ، وتارة يأتي التركيز على المسلمين الأوائل ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٩-٢٢] .

وفي أسباب نزول هذه الآية يقول الإمام السيوطي رحمه الله تعالى : أخرج مسلم ، وابن حبّان وأبو داود ، عن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفرٍ من أصحابه ، فقال رجل منهم : ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج ، وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام ، وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ، وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله فاستفتيته فيما اختلفتم فيه ، فأنزل الله هذه الآيات[1] وقال المفسّر الشهير بالخازن : ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ ﴾ والسقاية مصدر كالرعاية والحماية وهي سقي الحاج ، وكان العباس بن عبد المطلب بيده سقاية الحاج ، وكان يليها في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام وأسلم العباس ، أقره رسول الله ﷺ على ذلك ، وعمارة المسجد الحرام يعني بناءه وتشييده ومرمته .

﴿ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ فيه حذف تقدير كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر ﴿ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٩] أي وكجهاد من جاهد في

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي : ٢٤١ ، وأسباب النزول للسيوطي : ١٨٨ .

سبيل الله ، وقيل : السقاية والعمارة بمعنى الساقي والعامر ، تقديره : أجعلتم ساقي الحاج وعامر المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩] يعني لا يستوي حال هؤلاء الذين آمنوا بالله وجاهدوا في سبيل الله بحال من سقى الحاج وعمر المسجد الحرام وهو مقيم على شركه وكفره ، لأن الله سبحانه وتعالى لا يقبل عملاً إلا مع الإيمان به ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩] .

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٠] يعني أن من كان موصوفاً بهذه الصفات ، يعني الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس كان أعظم درجة عند الله ممن افتخر بالسقاية وعمارة المسجد الحرام ، وإنما لم يذكر القسم المرجوح لبيان فضل القسم الراجح على الإطلاق على من سواهم ، والمراد بالدرجة المنزلة والرفعة عند الله في الآخرة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ يعني بسعادة الدنيا والآخرة .

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ يعني خبرهم ربهم ، والبشارة الخبر السار الذي يفرح الإنسان عند سماعه ، وتستنير بشرة وجهه عند سماعه ذلك الخبر السار ، ثم ذكر الخبر السار الذي يبشرهم به ، فقال تعالى : ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ وهذا أعظم البشارات لأن الرحمة والرضوان من الله عز وجل على العبد نهاية مقصودة ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ يعني أن نعيم الجنة دائم غير منقطع أبداً ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ يعني في الجنان وفي النعيم ﴿أَبَدًا﴾ يعني لا انقطاع له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يعني لمن عمل بطاعته وجاهد في سبيله[1] .

---

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل ـ تفسير الخازن ـ ٣/٦٨ـ٧٠ ، وللتوسع يراجع : =

وبعد قليل يأتي الحديث القرآني عن الرحلة بين مكة والمدينة ، إنها هجرة رسول الله ﷺ مع صاحبه الصدّيق ، وكيف كان تأييد الله لهما ونصرته لهما ، وكيف أنزل الله السكينة عليهما في الغار ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[التوبة : ٤٠] .

وفي شرح كلمات هذه الآية الشريفة ، يقول الإمام الرازي (ت٦٠٤هـ) رحمه الله تعالى : . . . المسألة الرابعة : دلت هذه الآية على فضيلة أبي بكر رضي الله عنه من وجوه :

الأول ـ أنه عليه السلام لما ذهب إلى الغار لأجل أنه كان يخاف الكفار من أن يقدموا على قتله ، فلولا أنه عليه السلام كان قاطعاً على باطن أبي بكر ، بأنه من المؤمنين المحققين الصادقين الصديقين ، وإلا لما أصحبه نفسه في ذلك الموضع ، لأنه لو جوز أن يكون باطنه بخلاف ظاهره ، لخاف من أن يدل أعداءه عليه ، وأيضاً لخافه من أن يقدم على قتله ، فلما استخلصه لنفسه في تلك الحالة ، دلّ على أنه عليه السلام كان قاطعاً بأن باطنه على وفق ظاهره .

الثاني ـ وهو أن الهجرة كانت بإذن الله تعالى ، وكان في خدمة

= الدر المنثور للسيوطي : ٣/٢١٨ ، تفسير الطبري : ١٤/١٦٩ ، تفسير البغوي : ٢/٢٧٥ ، فتح القدير : ٢/٤٢٧ ، تفسير النسفي : ٢/١٧٤ ، التفسير المنير : ١٠/١٤٣ .

رسول الله ﷺ جماعة من المخلصين ، وكانوا في النسب إلى شجرة رسول الله أقرب من أبي بكر ، فلولا أن الله تعالى أمره بأن يستصحب أبا بكر في تلك الواقعة الصعبة الهائلة ، وإلا لكان الظاهر أن لا يخصه بهذه الصحبة ، وتخصيص الله إياه بهذا التشريف دلّ على منصب عال له في الدين .

الثالث ـ أن كل من سوى أبي بكر فارقوا رسول الله ﷺ ، أما هو فما سبق رسول الله كغيره ، بل صبر على مؤانسته وملازمته وخدمته عند هذا الخوف الشديد الذي لم يبق معه أحد ، وذلك يوجب الفضل العظيم .

الرابع ـ أنه تعالى سماه ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠] فجعل ثاني محمد عليه السلام حال كونهما في الغار ، والعلماء أثبتوا أنه رضي الله عنه كان ثاني محمد عليه السلام في أكثر المناصب الدينية ، فإنه ﷺ لما أرسل إلى الخلق وعرض الإسلام على أبي بكر آمن أبو بكر ، ثم ذهب أبو بكر وعرض الإسلام على طلحة والزبير وعثمان وجماعة آخرين من أجلة الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، والكل آمنوا على يديه ، ثم إنه جاء بهم إلى رسول الله بعد أيام قلائل ، فكان هو ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ في الدعوة إلى الله ، وأيضاً كلما وقف رسول الله في غزوة ، كان أبو بكر يقف في خدمته ولا يفارقه ، فكان ثاني اثنين في مجلسه ، ولما مرض رسول الله قام مقامه في إمامة الناس في الصلاة فكان ثاني اثنين ، ولما توفي دفن بجنبه ، فكان ثاني اثنين هناك أيضاً ، وطعن بعض الحمقى من الروافض في هذا الوجه قالوا : كونه ثاني اثنين للرسول لا يكون أعظم من كون الله تعالى رابعاً لكل ثلاثة في قوله : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة : ٧] ثم إن هذا الحكم عام في حق الكافر والمؤمن ، فلما لم يكن هذا المعنى من الله تعالى دالاً على فضيلة الإنسان فلأن لا يدل من النبي على فضيلة الإنسان كان أولى :

والجواب : أن هذا تعسف بارد ، لأن المراد هناك كونه تعالى مع الكل بالعلم والتدبير ، وكونه مطلعاً على ضمير كل أحد ، أما ههنا فالمراد بقوله تعالى ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ تخصيصه بهذه الصفة في معرض التعظيم ، وأيضاً قد دللنا بالوجوه الثلاثة المتقدمة على أن كونه معه في هذا الموضع دليل قاطع على أنه ﷺ كان قاطعاً بأن باطنه كظاهره ، فأين أحد الجانبين من الآخر؟ .

والوجه الخامس ـ من التمسك بهذه الآية ما جاء في الأخبار أن أبا بكر رضي الله عنه لما حزن قال عليه الصلاة والسلام : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ » ولا شك أن هذا منصب عليّ ، ودرجة رفيعة .

واعلم أن الروافض في الدين كانوا إذا حلفوا قالوا : وحق خمسة سادسهم جبريل ، وأرادوا به أن الرسول ﷺ ، وعلياً ، وفاطمة ، والحسن والحسين ، كانوا قد احتجبوا تحت عباءة يوم المباهلة ، فجاء جبريل وجعل نفسه سادساً لهم ، فذكروا للشيخ الإمام الوالد رحمه الله تعالى أن القوم هكذا يقولون ، فقال رحمه الله : لكم ما هو خير منه بقوله: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما» ومن المعلوم بالضرورة أن هذا أفضل وأكمل .

والوجه السادس ـ أنه تعالى وصف أبا بكر بكونه صاحباً للرسول وذلك يدل على كمال الفضل ، قال الحسين بن فضيل البجلي : من أنكر أن يكون أبو بكر صاحب رسول الله ﷺ كان كافراً ، لأن الأمة مجمعة على أن المراد من ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ [التوبة: ٤٠] هو أبو بكر ، وذلك يدل على أن الله تعالى وصفه بكونه صاحباً له ، واعترضوا وقالوا : إن الله تعالى وصف الكافر بكونه صاحباً للمؤمن ، هو قوله ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ﴾ [الكهف : ٣٧] .

والجواب : أن هناك وإن وصفه بكونه صاحباً له ذكراً إلا أنه أردفه بما يدل على الإهانة والإذلال ، وهو قوله ﴿ أَكَفَرْتَ﴾ أما ههنا فبعد أن وصفه بكونه صاحباً له ، ذكر ما يدل على الإجلال والتعظيم ، وهو قوله ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠] فأي مناسبة بين البابين لولا فرط العداوة؟ .

والوجه السابع ـ في دلالة هذه الآية على فضل أبي بكر ، قوله : ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ ولا شك أن المراد من هذه المعية ، المعية بالحفظ والنصرة والحراسة والمعونة ، وبالجملة فالرسول عليه الصلاة والسلام شرك بين نفسه وبين أبي بكر في هذه المعية ، فإن حملوا هذه المعية على وجه فاسد ، لزمهم إدخال الرسول فيه ، وإن حملوها على محمل رفيع شريف ، لزمهم إدخال أبي بكر فيه ، ونقول بعبارة أخرى ، دلت الآية على أن أبا بكر كان الله معه ، وكل من كان الله معه فإنه يكون من المتقين المحسنين ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل : ١٢٨] والمراد منه الحصر ، والمعنى إن الله مع الذين اتقوا لا مع غيرهم ، وذلك يدل على أن أبا بكر من المتقين المحسنين .

والوجه الثامن ـ في تقرير هذا المطلوب أن قوله ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ يدل على كونه ثاني اثنين في الشرف الحاصل من هذه المعية ، كما كان ثاني اثنين إذ هما في الغار ، وذلك منصب في غاية الشرف .

والوجه التاسع ـ أن قوله ﴿لَا تَحْـزَنْ﴾ نهي عن الحزن مطلقاً ، والنهي يوجب الدوام والتكرار ، وذلك يقتضي أن لا يحزن أبو بكر بعد ذلك البتة ، قبل الموت وعند الموت وبعد الموت .

والوجه العاشر : ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ [التوبة: ٤٠] ، أي على قلب أبي بكر ، لأن الحزن والخوف كانا حاصلين لأبي بكر لا للرسول عليه الصلاة والسلام ، فإنه عليه السلام كان آمناً ساكن القلب بما وعده الله أن ينصره على قريش ، فلما قال لأبي بكر لا تحزن صار آمناً ، فصرف السكينة إلى أبي بكر ليصير ذلك سبباً لزوال خوفه ، أولى من صرفها إلى الرسول ﷺ ، مع أنه قبل ذلك ساكن القلب قوي النفس .

والوجه الحادي عشر ـ من الوجوه الدالة على فضل أبي بكر من هذه الآية إطباق الكل على أن أبا بكر هو الذي اشترى الراحلة لرسول الله ﷺ ، وعلى أن عبد الرحمن بن أبي بكر وأسماء بنت أبي بكر هما اللذان كانا يأتيانهما بالطعام .

الوجه الثاني عشر ـ أن رسول الله ﷺ حين دخل المدينة ما كان معه إلا أبو بكر ، والأنصار ما رأوا مع رسول الله ﷺ أحداً إلا أبا بكر[1] ، وذلك يدل على أنه كان يصطفيه لنفسه من بين أصحابه في السفر والحضر ، وأن أصحابنا زادوا عليه وقالوا : لما لم يحضر معه في ذلك

---

(١) للتوسع في أحداث هجرة النبي ﷺ يراجع :
سيرة ابن هشام : ٢/ ٩٧ ، سنن الترمذي : ٥/ ٣٠٤ ، المستدرك على الصحيحين للحاكم : ٣/ ٥ ، دلائل النبوة للبيهقي : ٢/ ٥١٧ ، مسند الإمام أحمد : ١/ ٢٢٣ ، صحيح البخاري : ٥/ ٧٥ ، عيون الأثر لابن سيد الناس : ١/ ١٨٣ ، سنن أبي داود : ٤/ ٣٤٣ ، طبقات ابن سعد : ١/ ٢٢٨ ، تاريخ الطبري : ٢/ ٣٧٥ ، فتح الباري : ٧/ ٢٣٥ ، مجمع الزوائد للهيثمي : ٦/ ٥٢ ، دلائل النبوة لأبي نعيم : ٢/ ٤٢٢ ، كنز العمال للمتقي الهندي : ١٦/ ٦٦٢ . حلية الأولياء : ١/ ٣٣ ، صحيح مسلم ٤/ ١٨٥٤ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٣/ ١٧٨ ، سنن النسائي : ٢/ ٣٩ ، السنن الكبرى للبيهقي : ٢/ ٤٣٨ .

السفر أحد إلا أبو بكر ، فلو قدرنا أنه توفي رسول الله ﷺ في ذلك السفر لزم أن لا يقوم بأمره إلا أبو بكر وأن لا يكون وصيه على أمته إلا أبو بكر ، وأن لا يبلغ ما حدث من الوحي والتنزيل في ذلك الطريق إلى أمته إلا أبو بكر ، وكل ذلك يدل على الفضائل العالية والدرجات الرفيعة لأبي بكر رضي الله عنه[1] .

وبعد عدة آيات ، يعقد القرآن الكريم مقارنة بين الكثيرين ممن إذا دعوا إلى الجهاد مع رسول الله ﷺ قدموا المعاذير الكثيرة الكاذبة ، وطلبوا من رسول الله أن يتركهم مع القاعدين ، فيقارن بين أولئك الصفوة من البشر ، أولئك هم صحابة رسول الله ، الذين جاهدوا بالأموال والأنفس ، ثم يختم القرآن تلك المقارنة بالوعد والبشارات التي يمنحها الله لهم ، فيقول تعالى :

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ٨٨-٨٩] .

إن الصحب الكرام عندما سارعوا إلى الجهاد في سبيل الله تعالى حصّلوا من جرّاء ذلك الفوائد والمنافع ، وأهمها منافع الدارين ، وقيل : الحور العين ، وذلك لقول الله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن : ٧٠] ، ومنها الفلاح والتخلص من العقاب والعذاب ، وفيها خيرات الدنيا : كالغزو ، والكرامة ، والثروة ، والقدرة ، والغلبة ، ثم ما عند الله أكبر من ذلك كله ، ألا هو بلوغ رؤية وجه الله يوم القيامة ، ونيل مرضاته سبحانه .

---

(١) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ـ بتصرف واختصار ـ : ٨/ ٦٤-٧١ .

وبعد ذلك يأتي الحديث القرآني عن الأوائل من المهاجرين والأنصار ومن سار على الدرب القويم ، كيف أن الله سبحانه في علاه قد رضي عنهم ، فرضوا برضاه عنهم عن كل ما جاء من عنده سبحانه وتعالى ، فوصلوا بذلك إلى مرتبةٍ عاليةٍ لا يدانيها أحد من بعدهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

وبعد ذلك يأتي الحديث القرآني عن دائرة أوسع من صحابة رسول الله ﷺ ، وهي تشمل كل من حضر غزوة تبوك ، والتي سميت (غزوة العسرة) لما كان فيها من سفر بعيد ، وقلة زادٍ ، وقلة ظهر للركوب ، وشدة القيظ ، وشدة العطش إلى درجة أنهم نحروا كثيراً من الإبل من أجل أن يشربوا ما في بطنها ، فقال تعالى : ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

[التوبة : ١١٧] .

وفي أسباب نزول هذه الآية ذكر الإمام السيوطي رحمه الله ما يلي :

روى البخاري وغيره عن كعب بن مالك قال : لم أتخلف عن النبي ﷺ في غزوة إلا بدراً حتى كانت غزوة تبوك ، وهي آخر غزوة غزاها ، وآذن الناس بالرحيل ، فذكر الحديث بطوله ، وفيه : فأنزل الله توبتنا : ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ

﴿لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٨] قال : وفينا أنزل ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1] [التوبة: ١١٩] .

وذكر الإمام الرازي عدة وجوه لهذه المسألة ، منها :

أنه قال : ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ هذا الترتيب يدل على أن المراد أنه تعالى تاب عليهم من الوساوس التي كانت تقع في قلوبهم في ساعة العسرة ، ثم إنه تعالى زاد عليه فقال : ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ فهذه الزيادة أفادت حصول وساوس قوية ، فلا جرم أتبعها تعالى بذكر التوبة مرة أخرى لئلا يقبل في خاطر أحدهم شك في كونهم مؤاخذين بتلك الوساوس[2] .

---

(١) أسباب النزول : ٢٠٧ .

(٢) للتوسع في ذلك يراجع :

الدر المنثور للسيوطي : ٣/ ٢٩٢ ، أحكام القرآن للجصاص : ٣/ ١١٥ ، تفسير البغوي : ٢/ ٣٣٣ ، تفسر النسفي : ٢/ ٢١٣ ، في ظلال القرآن : ٣/ ١٧١٢ ، فتح القدير : ٢/ ٥١٢ ، التفسير المنير : ١١/ ٦٤ ، تفسير القرطبي : ٨/ ٢٣٦ ، تفسير ابن كثير : ٢/ ٣٨٣ ، تفسير الرازي : ٨/ ١٦٨ ، تفسير أبي السعود : ٤/ ٩١ ، طبقات ابن سعد : ٢/ ١٤ ، سيرة ابن هشام : ٤/ ٦٥ ، صحيح البخاري : ٥/ ٢٠٢ ، صحيح مسلم : ٢/ ٧٣٥ ، سنن البيهقي : ٦/ ٣٠٦ ، مسند الإمام أحمد : ٣/ ١٩٠ ، مستدرك الحاكم : ٢/ ١٣٠ ، مجمع الزوائد : ٦/ ١٨٤ ، تاريخ الطبري : ٣/ ٧٠ ، عيون الأثر : ٢/ ١٨٨ ، سنن أبي داود : ٣/ ٨٢٣ .

٧- في سورة النحل :

يقول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل : ٤١-٤٢] .

وفي أسباب نزول هذه الآية يقول الواحدي : نزلت في أصحاب النبي ﷺ بمكة : بلال وصهيب وخباب وعامر وجندل بن صهيب ، أخذهم المشركون بمكة ، فعذبوهم وآذوهم ، فبوّأهم الله تعالى بعد ذلك المدينة[١] .

وفي تفسير هذه الآية يقول سيد قطب رحمه الله : وهنا يعرض في الجانب المقابل للمنكرين الجاحدين ، لمحة عن المؤمنين المصدقين ، الذين يحملهم يقينهم في الله والآخرة على هجر الديار والأموال ، في الله ، وفي سبيل الله .

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ. . .﴾ فهؤلاء الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم ، وتعروا عما يملكون وعما يحبون ، وضحوا بدارهم وقرب عشيرتهم والحبيب من ذكرياتهم ، هؤلاء يرجون في الآخرة عوضاً عن كل ما خلفوا وكل ما تركوا ، وقد عانوا الظلم وفارقوه ، فإذا كانوا قد خسروا الديار فـ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ ﴾ ولنسكننهم خيراً مما فقدوا ﴿ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾ لو كان الناس يعلمون .

هؤلاء ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ واحتملوا ما احتملوا ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لا يشركون أحداً في الاعتماد والتوجه والتكلان[٢] .

---

(١) أسباب النزول : ٢٨٤ .

(٢) في ظلال القرآن : ٤/ ٢١٧١ ، وللتوسع يراجع : =

٨ـ في سورة الحج :

يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [الحج : ٥٨ـ٥٩] .

(والهجرة في سبيل الله تجرد من كل ما تهفو له النفس ، ومن كل ما تعتز به وتحرص عليه : الأهل والديار والوطن والذكريات ، والمال وسائر أعراض الحياة ، وإيثار العقيدة على هذا كله ابتغاء رضوان الله ، وتطلعاً إلى ما عنده وهو خير مما في الأرض جميعاً ، والهجرة كانت قبل فتح مكة وقيام الدولة الإسلامية ، أما بعد الفتح فلم تعد هجرة ، ولكن جهاد عمل كما قال رسول الله ﷺ ، فمن جاهد في سبيل الله وعمل كان له حكم الهجرة ، وكان له ثوابها .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ سواءً لاقوا الله شهداء بالقتل ، أو لاقوه على فراشهم بالموت ، فلقد خرجوا من ديارهم وأموالهم في سبيله مستعدين لكل مصير ، واستروحوا للشهادة في هجرتهم عن أي طريق ، وضحوا بكل عرض الحياة وتجردوا بهذا لله ، فتكفّل الله لهم بالعوض الكريم عما فقدوه : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ وهو رزق أكرم وأجزل من كل ما تركوا ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ﴾ فقد خرجوا مخرجاً يرضي الله فتعهد لهم الله بأن يدخلهم مدخلاً

= تفسير الخازن : ٧٥/٤ ، تفسير الطبري : ١٠٧/١٤ ، تفسير ابن كثير : ٢٣١/٣ ، تفسير البغوي : ٧٠/٣ ، فتح القدير : ٢٠٣/٣ ، تفسير النسفي : ٤١٣/٢ ، التفسير المنير : ١٤٣/١٤ ، أسباب النزول للسيوطي : ٢٢١ .

يرضونه ، وإنه لمظهر لتكريم الله لهم بأن يتوخى ما يرضونه فيحققه لهم ، هم عباده ، وهو خالقهم سبحانه ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ عليم بما وقع عليهم من الظلم والأذى ، وبما يرضي نفوسهم ويعوضها ، حليم يمهل ، ثم يوفّي الظالم والمظلوم الجزاء الأوفى[1] .

٩ـ في سورة الأحزاب :

تحدثنا هذه السورة عن نماذج من تضحيات صحابة رسول الله ﷺ ، خاصة في المعارك ضد العدو ، فيقول الله تعالى : ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

وفي أسباب النزول يقول الإمام الواحدي رحمه الله تعالى : عن أنس : قال : غاب عمي أنس بن النضر ـ وبه سمي أنساً ـ عن قتال بدر ، فشق عليه لما قدم وقال : غبت عن أول مشهد شهده رسول الله ﷺ ، والله لئن أشهدني الله سبحانه قتالاً ليرينَّ الله ما أصنع ، فلما كان يوم أُحُد انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء المشركون ، وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ ثم مشى بسيفه فلقيه سعد بن معاذ ، فقال : أي سعد ، والذي نفسي بيده إني لأجدُ ريح الجنة دون أُحد ، فقاتلهم حتى قتل ، قال أنس : فوجدناه بين القتلى ، به بضع وثمانون جراحة ، من بين

---

(١) في ظلال القرآن : ٤/٢٤٣٦ ، وللتوسع يراجع :
أضواء البيان ـ تفسير القرآن بالقرآن ـ للشنقطي : ٥/٧٣٧ ، تفسير ابن كثير : ٣/٢١٣ ، تفسير البغوي : ٣/٢٩٤ ، تفسير النسفي : ٣/١٦٣ ، التفسير المنير للزحيلي : ١٧/٢٥٨ .

obeikandi.com

ضربة بسيف وطعنة برمح ، ورمية بسهم ، وقد مثلوا به فما عرفناه حتى عرفته أخته ببنانه ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

.. وعن عيسى بن طلحة : أن النبي ﷺ مرّ على طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فقال : « هذا ممن قضى نحبه »[1] .

١٠ـ في سورة الفتح :

حديث قرآني عن الذين بايعوا رسول الله ﷺ من الصحابة في مكان تحت شجرة ، فسميت بيعة الرضوان أو بيعة الشجرة ، قال الله تعالى :

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الفتح : ١٨ـ٢١] .

وفي تفسير هذه الآيات يقول الدكتور وهبة الزحيلي حفظه الله تعالى : قوله تعالى : ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ أي تالله لقد رضي الله عن المؤمنين المخلصين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة بيعة الرضوان ، بالحديبية ، على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا ، وروي أنه بايعهم على الموت ، وكان عددهم في الأصح ألفاً وأربعمئة ، وسميت بيعة الرضوان لقوله : ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ ﴾ .

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي : ٣٧١ ، وللتوسع يراجع :
تفسير ابن كثير : ٣/ ٤٧٥ ، تفسير النسفي : ٣/ ٤٣٦ ، تفسير البغوي : ٣/ ٥٢٠ .

روى البخاري أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : انطلقت حاجاً ، فمررت بقوم يصلّون ، فقلت : ما هذا المسجد؟ قالوا : هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان ، فأتيت سعيد بن المسيب ، فأخبرته ، فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها ، فلم نقدر عليها ، فقال سعيد : إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها ، وعلمتموها أنتم ، فأنتم أعلم!! .

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه عن نافع قال : بلغ عمر رضي الله عنه أن أناساً يأتون الشجرة التي بويع تحتها ، فأمر بها ، فقطعت .

﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ أي فعلم الله ما في قلوبهم من الإيمان والصدق ، والإخلاص والوفاء ، والسمع والطاعة ، فأنزل الطمأنينة وسكون النفس عليهم ، وجازاهم فتح خيبر بعد انصرافهم من الحديبية ، ثم أتبعه فتح مكة وفتح سائر البلاد والأقاليم .

وفاء ﴿ فَعَلِمَ ﴾ للتعقيب ، والفعل متعلق بقوله : ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾ وبما أن العلم بما في القلوب قبل الرضا ، فيكون المراد كما يقول القائل : فرحت أمس إذ كلّمت زيداً ، فقام إليّ أو إذ دخلت عليه فأكرمني ، فيكون الفرح بعد الإكرام ترتيباً في المعنى ، والآية كذلك إشارة إلى أن الرضا لم يكن عند المبايعة فحسب ، بل عند المبايعة التي كان معها علم الله بصدقهم ، وفاء ﴿ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ للتعقيب الواقعي ، فإنه تعالى رضي عنهم ، فأنزل السكينة عليهم .

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ أي : وأثابهم أيضاً مغانم كثيرة ، وهي غنائم خيبر ، ومخصصاً بأهل بيعة الرضوان .

وكان الله وما يزال غالباً كامل القدرة ، مدبراً أمور خلقه على وفق الحكمة والسداد ، وقد حقق لأهل بيعة الرضوان العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة .

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ أي وعدكم الله أيها المؤمنون مغانم كثيرة من المشركين والكفار على ممر الدهر إلى يوم القيامة ، ولكن عجّل لكم غنائم خيبر ، وكفّ أيدي قريش عنكم يوم الحديبية بالصلح ، وأيدي اليهود أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان عن قتالكم ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فلم يتكلم بسوء مما أضمره أعداؤه لكم من المحاربة والقتال .

كل ذلك لتشكروه ، ولتكون تلك النعم علامة للمؤمنين يعلمون بها صدق رسول الله ﷺ في جميع ما يَعِدُهُم به ، وأن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء ، مع قلة العدد ، وليزيدكم بتلك الآية أو العلامة هدى ، أو يثبتكم على الهداية إلى طريق الحق ، والانقياد لأمر الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ : ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾ أي وعدكم الله غنائم أخرى وفتوحات أخرى غير صلح الحديبية وفتح خيبر ، لم تكونوا تقدرون عليها في حالتكم الراهنة ، قد أحاط الله بها علماً أنها ستصير أو ستكون لكم ، وتفتحونها وتأخذونها ، مثل غنائم هوازن في غزوة حنين ، وفتوحات فارس والروم ، وكان الله وما يزال على كل شيء قديراً مقتدراً ، لا يعجزه شيء(١) .

وبعد عدة آيات ، يأتي الحديث القرآني عن صلح الحديبية وكيف أنزل الله السكينة على قلوب أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال تعالى :

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج : ٢٦/ ١٨١-١٨٢ .

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٦] .

... (قوله تعالى ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ ﴾ أي لعذبناهم حين جعلوا في قلوبهم أنفة الجاهلية التي لا تذعن للحق ولا تعرف منطقاً ولا تعتمد دليلاً مقنعاً ، وهي قولهم : واللات والعزى لا يدخلونها علينا ، وإباؤهم كتابة البسملة ووصف محمد ﷺ بأنه رسول الله في مقدمة صلح الحديبية .

فأنزل الله الطمأنينة والثبات والصبر على رسوله وعلى المؤمنين ، حيث لم يدخلهم ما دخل أهل الكفر من الحمية ، وثبّتهم على الرضا والتسليم ، وألزمهم كلمة الشهادة أو التوحيد وهي : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أو ألزمهم تعظيم الحرم ، وترك القتال فيه ، ولم يستفزهم صنيع الكفرة ، لينتهكوا حرمة الحرم ، وكان المؤمنون أحق بهذه الكلمة وأجدر بها وأهلاً لها من دون الكفار ، إذ هم أهل الخير والصلاح والعقيدة الصحيحة ، على نقيض الكفار ذوي العقيدة الفاسدة . وكان الله وما يزال عليماً بمن يستحق الخير ، ممن يستحق الشر)(١) .

ثم يختم البيان الإلهي سورة الفتح برسم صورة رائعة للكيفية التي كان يلتف بها صحابة رسول الله ﷺ حوله ، وكيف دافعوا وتحمّلوا

---

(١) التفسير المنير : ٢٦/ ١٩٥ ، وللتوسع يراجع :
أسباب النزول للسيوطي : ٣٤٢ ، تفسير الرازي : ٢٨/ ٩٥ ، تفسير ابن كثير : ٦/ ٣٤٧ ، تفسير البغوي : ٤/ ١٩٢ ، فتح القدير للشوكاني : ٥/ ٦٢ ، الدر المنثور : ٦/ ٧٣ ، في ظلال القرآن : ٦/ ٣٣٢٤ ، تفسير النسفي : ٤/ ٢٣٦ .

الكثير حتى حقق الله سبحانه بهم النصر وانتشار الدعوة الإسلامية .

فيقول الله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

وفي تفسير معاني هذه الآية ، قال الحافظ ابن كثير (ت٧٧٤هـ) رحمه الله تعالى :

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب فقال ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ وهذا مبتدأ وخبر ، وهو مشتمل على كل وصف جميل ، ثم ثنّى بالثناء على أصحابه رضي الله عنهم فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ كما قال عز وجل : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار ، رحيماً براً بالأخيار ، غضوباً عبوساً في وجه الكافر ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ ﴾ [التوبة : ١٢٣] وقال النبي ﷺ : « مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد . إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وقال ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وشبّك ﷺ بين أصابعه ، كلا الحديثين في الصحيح .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ ﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال ، ووصفهم

بالإخلاص فيها لله عز وجل والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم ، وهو أكبر من الأول كما قال جل وعلا : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة : ٧٢] ، وقوله جل جلاله : ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : سيماهم في وجوههم يعني السمت الحسن ، وقال مجاهد وغير واحد : يعني الخشوع والتواضع . وقال السدي : الصلاة تحسن وجوههم ، وقال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ، وفي سنن ابن ماجه عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » والصحيح أنه موقوف ، وقال بعضهم : إن للحسنة نوراً في القلب وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس .

وقال عثمان رضي الله عنه : ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه ، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله عز وجل ظاهره للناس ، كما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته ، وروى الطبراني عن جندب البجلي رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر » .

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صمّاء ليس لها باب ولا كوّة لخرج عمله للناس كائناً ما كان » .

فالصحابة رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم .

وقال مالك رضي الله عنه : بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون : والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا ، وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة ، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد نوّه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة ، ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا : ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾ ثم قال : ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ أي فراخه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي شده ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ أي شب وطال ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزروه وأيّدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ .

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه ، في رواية عنه ، حكم تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم ، قال : لأنهم يغيظونهم ، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية ، ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك ، والأحاديث في فضل الصحابة رضي الله عنهم والنهي عن التعرض لهم بمساويهم كثيرة ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم .

ثم قال تبارك وتعالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم﴾ من هذه لبيان الجنس ﴿مَّغۡفِرَةً﴾ أي لذنوبهم ﴿وَأَجۡرًا عَظِيمًۢا﴾ أي ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً ، ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل ، وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم ، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة رضي الله عنهم

وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم ، وقد فعل ، قال مسلم في صحيحه . . . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه »(١) .

١١ـ في سورة الحديد :

حديث قرآني يصنف صحابة رسول الله ﷺ صنفين ، فالذين آمنوا وأنفقوا قبل فتح مكة هم خير وأعظم درجة من الذين آمنوا وأنفقوا ونصروا بعدها ، ذلك لأن الصحابة الذين آمنوا بعد فتح مكة ، كان إيمانهم نابعاً من أمر الواقع ، حيث انتشر الدين الإسلامي ، وسقطت أم القرى ، عاصمة الشرك ، ولم يبق هناك بدّ من الإسلام ، أما الذين آمنوا قبلها فكان إيمانهم صادقاً نابعاً من حب الله ورسوله ، لا طمعاً في شيء من الدنيا ، بل كان إيمانهم قبل الفتح يعرضهم للويلات وفقدان الأموال والديار و . . . ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد : ١٠] .

وفي أسباب نزول هذه الآية يقول الإمام الواحدي رحمه الله تعالى : بالسند المتصل إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال :

بينا النبي ﷺ جالس وعنده أبو بكر الصديق ، وعليه عباءة قد خلّلها

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٦/ ٣٦٣ ، وللتوسع يراجع : تفسير الخازن : ٦/ ٢١٤ ، تفسير الرازي : ٢٨/ ١٠٧ ، تفسير البغوي : ٤/ ٢٠٤ ، تفسير النسفي : ٤/ ٢٤١ ، فتح القدير : ٥/ ٦٦ ، في ظلال القرآن : ٦/ ٣٣٢٤ ، التفسير المنير : ٢٦/ ٢٠٤ .

على صدره بخِلال ، إذ نزل عليه جبريل عليه السلام فأقرأه من الله السلام وقال : يا محمد ، مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلّلها على صدره بخلال؟ فقال : « يا جبريل ، أنفق ماله قبل الفتح عليّ » .

قال : فأقرئه من الله سبحانه وتعالى السلام وقل له : يقول لك ربك : أراضٍ أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟ فالتفت النبي ﷺ إلى أبي بكر ، فقال : يا أبا بكر ، هذا جبريل يُقرئك من الله سبحانه السلام ، ويقول لك : أراضٍ أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟ .

فبكى أبو بكر وقال : على ربي أغضب؟ أنا عن ربي راضٍ ، أنا عن ربي راضٍ[(١)] .

١٢ـ في سورة الحشر :

يأتي الحديث القرآني عن كيفية إخراج المهاجرين من مكة ، تاركين أموالهم وأوطانهم ، متوجهين إلى الله سبحانه كي يرضى عنهم ، مقدمين كل ما يملكون أمام رسول الله ﷺ .

وبالمقابل أولئكم الأنصار الذين استقبلوا إخوانهم المهاجرين خير استقبال ، وآثروهم على أنفسهم في كل ما يملكون .

ويأتي الوصف القرآني للمهاجرين بأنهم الصادقون ، وللأنصار بأنهم المفلحون قال الله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ

---

(١) أسباب نزول القرآن : ٤٣١ ، وللتوسع في ذلك يراجع :
تفسير الخازن : ٧/ ٢٧ ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٧/ ٢٤٠ ، الدر المنثور للسيوطي : ٦/ ١٧١ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٦/ ٤٨٥ .

حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٨ـ٩] .

أخرج ابن المنذر عن زيد الأصمّ أن الأنصار قالوا : يا رسول الله أقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض نصفين ، قال : لا ، ولكن تكفونهم المؤنة وتقاسمونهم الثمرة ، والأرض أرضكم ، قالوا : رضينا ، فأنزل الله هذه الآية .

وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهنّ شيئاً ، فقال : ألا رجل يضيفه هذه الليلة يرحمه الله ، فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فذهب إلى أهله فقال لامرأته : ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً ، قالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية!! قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوّميهم وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال : « لقد عجب الله ـ أو ضحك ـ من فلان وفلانة » فأنزل الله تعالى هذه الآية[١] وهكذا بين الله تعالى حال الفقراء المهاجرين ، الذين أخرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ الذين صدقوا قولهم بفعلهم وهؤلاء هم سادات المهاجرين .

ثم قال تعالى مادحاً الأنصار ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم ، وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم ، قال عمر رضي الله عنه : (وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن

---

(١) أسباب النزول للسيوطي : ٣٧٣ .

يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم ، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم) رواه البخاري أيضاً .

وأما قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ . أي من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم ، قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا حميد عن أَنس رضي الله عنه قال :

قال المهاجرون : يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير ، لقد كفونا المؤنة ، وأشركونا في المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ، قال : « لا ، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم »[١] .

وبهذا نكون قد عشنا مع غالبية آيات القرآن ، وهي تتحدث عن بعض فضائل صحابة رسول الله ﷺ ، ومع بعض تفسيرات هذه الآيات ، سائلين الله سبحانه في علاه أن يجعلنا جميعاً تحت لواء قوله : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم : ٨] آمين ، آمين .

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٦/٦٠٦ .

الفصل الثالث

فضائل الصحابة من خلال الأحاديث الشريفة

اتفق العلماء على أن السنة الشريفة ما هي إلا شرح لآيات القرآن الكريم ، ومن ثَمَّ فهي وحي من الله تعالى ، ودليل ذلك قول الله سبحانه : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣-٤] .

ولذلك فعندما نستنطق بعض الأحاديث النبوية في فضائل بعض الصحابة الكرام ، إنما نكون بذلك قد توجهنا إلى شرح آيات قرآنية تحدثت عن فضائلهم ، لكن المشكلة أن هناك أعداداً كبيرة من الأحاديث في هذا الموضوع لا يمكن حصرها على هذه الصفحات القليلة ، وهي موجودة في كتب الصحاح والسنن والمسانيد وما إلى هنالك .

لذا سنكتفي بسرد بعض هذه الأحاديث ، ونشير إلى المصادر والمراجع فقط لمن أراد أن يتوسع في ذلك ، ففي أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

فعن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من أحدٍ أمنّ عليّ في يده من أبي بكر ، زوّجني ابنته ، وأخرجني

إلى دار الهجرة ، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكرٍ ، ولكن إخاء ومودّة إلى يوم القيامة »[1] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « دخل أبو بكر الصديق على رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : أبشر . فأنت عتيق الله من النار ، قلت : فمن يومئذٍ سمي عتيقاً »[2] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل ، فأخذ بيدي ، فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه ، فقال رسول الله ﷺ : أما إنك يا أبا بكر أولُ من يدخل الجنة من أمتي »[3] .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « مرض النبي ﷺ فاشتد مرضه ، فقال : مروا أبا بكر فليصلّ بالناس ، قالت عائشة : يا رسول الله ، إنه رجل رقيق ، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس ، فقال : مُري أبا بكر فليصلّ بالناس ، فعادت ، فقال : مري أبا بكر فليصلّ بالناس ، فإنكنّ صواحبُ يوسف ، فأتاه الرسول ، فصلّى بالناس في حياة رسول الله »[4] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « إن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر : أنت صاحبي على الحوض ، وصاحبي في الغار »[5] .

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير : ١١٩/١٢ ، وابن أبي شيبة في المصنف : ١١٧/١٢ .
(٢) سنن الترمذي رقمه (٣٦٧٩) .
(٣) سنن أبي داود رقمه (٤٦٥٢) .
(٤) صحيح البخاري : ٢٩٩/٦ ، صحيح مسلم رقمه (٤٢٠) .
(٥) سنن الترمذي : رقمه (٣٦٧١) .

« وذكر عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبو بكر رضي الله عنه فبكى ، وقال : ودِدْتُ أن عملي كلّه مثلُ عمله يوماً واحداً من أيامه ، وليلةً واحدةً من لياليه ، أمّا ليلته ، فالليلة التي سار مع النبي ﷺ إلى الغار فلما انتهيا إليه قال : والله لا تدخله حتى أدخله قبلك ، فإن كان فيه شيء أصابني دونك ، فدخل فكسحه ، فوجد في جانبه ثقباً ، فشقّ إزاره ، وسدّها به ، فبقي منها اثنان ، فألقمهما رجليه ، ثم قال لرسول الله ﷺ : ادخل ، فدخل النبي ﷺ ، ووضع رأسه في حجره ونام ، فلُدغ أبو بكر في رجله من الحجر ، ولم يتحرك مخافة أن ينتبه النبي ﷺ ، فسقطت دموعه على وجه النبي ﷺ ، فقال : ما لك يا أبا بكر؟ .

قال : لُدِغتُ ، فداك ـ أبي وأمي ـ فتفل عليه النبي ﷺ ، فذهب ما يجده ، ثم انتقض عليه ، وكان سبب موته .

وأما يومه : فلما قبض النبي ﷺ ارتدّت العرب ، وقالوا : لا نؤدّي زكاةً ، فقال : لو منعوني عقالاً لجاهدتُهم عليه ، فقلت : يا خليفة رسول الله ، تألّف الناس ، وارفُق بهم ، فقال لي : أجبّار في الجاهلية وخوّار في الإسلام؟ إنه قد انقطع الوحي ، وتمّ الدين ، أينقصُ وأنا حيٌّ؟ »(١) .

وفي فضائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحاديث نبوية كثيرة منها :

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال عمر لأبي بكر : يا خير الناس بعد رسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر : أما إنك قلت ذاك ،

---

(١) جامع الأصول لابن الأثير الجزري : ٨/ ٦٥ .

فلقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما طلعت الشمس على رجل خيرٍ من عمر »(١) .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « اللهم أعزّ الإسلام بأبي جهل بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ، فأصبح ، فغدا عمر على رسول الله ﷺ فأسلم »(٢) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه »(٣) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « قد كان يكون في الأمم محدّثون ، فإن يكن في أمتي أحدٌ ، فعمر بن الخطاب »(٤) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بينا أنا نائم أوتيت بقدح لبن ، فشربت منه حتى إني لأرى الريّ يخرج من أظفاري ، ثم أعطيتُ فضلي عمر بن الخطاب ، قال من حوله : فما أوّلت ذلك يا رسول الله؟ قال : العلم »(٥) .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « استأذنت رسول الله ﷺ في العمرة ، فأذن لي ، وقال لي : لا تنسنا يا أُخي من دعائك ، أو

---

(١) سنن الترمذي : رقمه (٣٦٨٥) .
(٢) سنن الترمذي : رقمه (٣٦٨٤) .
(٣) سنن الترمذي : رقمه (٣٦٨٣) .
(٤) صحيح مسلم : رقمه (٢٣٩٨) ، سنن الترمذي : رقمه (٣٦٩٤) .
(٥) صحيح البخاري : ٧/٣٦ ، صحيح مسلم رقمه (٢٣٩٠) ، سنن الترمذي رقمه (٢٢٨٥) .

قال : أشركنا يا أخيّ في دعائك ، قال عمر : فقال كلمةً ما يسرّني أن لي بهذا الدنيا »[١] .

وعن بريدة رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ في بعض مغازيه ، فلما انصرف جاءت جارية سوداء ، فقالت : إني كنت نذرت إن ردّك الله صالحاً أن أضرب بين يديك بالدفّ وأتغنّى ، فقال لها : « إن كنت نذرت فاضربي ، وإلا فلا » ، فقالت : نذرتُ ، وجعلت تضرب .

زاد رزين : وتقول :

طلـــع البـــدر علينــــا مــــن ثنيــــات الـــوداع
وجـــب الشكـــر علينــا مــــا دعــــا لله داع

ثم اتفقا ، فدخل أبو بكر وهي تضرب ، ثم دخل عليّ وهي تضرب ، ثم دخل عثمان وهي تضرب ، ثم دخل عمر ، فألقت الدفّ تحت اسْتها وقعدت عليه ، فقال رسول الله ﷺ : إن الشيطان ليخاف منك يا عمر ، إني كنتُ جالساً وهي تضرب ، فدخل أبو بكر وهي تضرب ، ثم دخل عليّ وهي تضرب ، ثم دخل عثمان وهي تضرب ، فلما دخلتَ أنت يا عمر ألقتِ الدفّ »[٢] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه قال : وافقت ربي في ثلاث . قلت : يا رسول الله ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] . وقلت : يا رسول الله ، يدخل على نسائك البرّ والفاجر ، فلو أمرتهنّ

---

(١) سنن الترمذي : رقمه (٣٥٥٧) ، سنن أبي داود : رقمه (١٤٩٨) .
(٢) سنن الترمذي : رقمه (٣٦٩١) .

أن يحتجبن؟ فنزلت آية الحجاب ، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة ، فقلتُ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم : ٥] فنزلت كذلك[١] .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال : « إني لواقفٌ في قومٍ يدعون الله لعمر ، وقد وضع عمر على سريره ، فتكنّفه الناس يدعون ويصلّون قبل أن يُرفع ، وأنا فيهم ، فلم يرُعْني إلا رجلٌ أخذ بمنكبي ، - وفي رواية - : إذا رجل خلفي قد وضع مرفقه على منكبي ، فإذا عليٌّ ، فترحّم على عمر ، وقال : ما خلّفت أحداً أحبّ إليّ أن ألقى الله بمثل عمله منك ، وايم الله ، إن كنتُ لأظنُّ أن يجعلك الله مع صاحبيك ، لأني كنت كثيراً أسمع رسول الله ﷺ يقول : ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ، فإن كنت لأرجو - أو لأظنّ - أن يجعلك الله معهما »[٢] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الدرجات العُلى ليراهم من تحتهم ، كما ترون النجم الطالع في أفق السماء . وإن أبا بكر وعمر منهم ، وأنعما »[٣] .

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لا أدري ما بقائي فيكم؟ فاقتدوا باللّذين من بعدي : أبي بكر ، وعمر »[٤] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر

---

(١) صحيح البخاري : ١/٤٢٣ ، صحيح مسلم : رقمه (٢٣٩٩) .
(٢) صحيح البخاري : ٧/٣٣ ، صحيح مسلم : رقمه (٢٣٨٩) .
(٣) سنن أبي داود : رقمه (٣٩٨٧) ، سنن الترمذي : رقمه (٣٦٥٩) .
(٤) سنن الترمذي : رقمه (٣٦٦٤) .

وعمر : « هذان سيّدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ، إلا النبيين والمرسلين »[1] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من نبيّ إلا له وزيران من أهل السماء ، ووزيران من أهل الأرض ، فأما وزيرايَ من أهل السماء ، فجبريل وميكائيل ، وأما وزيراي من أهل الأرض ، فأبو بكر وعمر »[2] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم فدخل المسجد ، وأبو بكر وعمر ، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، وهو آخذ بأيديهما ، وقال : هكذا نبعث يوم القيامة »[3] .

فرضي الله عن الصديق أبي بكر ، وعن الفاروق عمر بن الخطاب وأرضاهما .

وأما فضائل عثمان بن عفانْ رضي الله عنه ، فمن ذلك :

ما رواه عبد الرحمن بن خباب رضي الله عنه قال : « شهدت رسول الله ﷺ وهو يحثّ على تجهيز جيش العسرة ، فقام عثمان بن عفان ، فقال : يا رسول الله ، علي مئة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، ثم حضّ على الجيش ، فقام عثمان فقال : يا رسول الله ، عليّ مئتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، ثم حضّ على الجيش ، فقام عثمان بن عفان ، فقال : عليّ ثلاثمئة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزل عن المنبر وهو يقول : ما على

---

(1) سنن الترمذي : رقمه (٣٦٦٦) .
(2) سنن الترمذي : رقمه (٣٦٨٠) .
(3) سنن الترمذي : رقمه (٣٦٧٠) .

obeikandi.com

عثمان ما فعل بعد هذه ، ما على عثمان ما عمل بعد هذه؟ »[1] .

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن : « أن عثمان أشرف عليهم حيث حاصروه ، فقال : أنشد بالله رجلاً سمع من رسول الله ﷺ يقول يوم الجبل ، حين اهتزّ فركله برجله ، فقال : اسكن ، فإنه ليس عليك إلا نبي أو صدّيق ، أو شهيدان ، وأنا معه ، فأنشد له رجال .

ثم قال أنشد بالله رجلاً شهد رسول الله ﷺ يوم بيعة الرضوان يقول : هذه يد الله ، وهذه يد عثمان . فانتشد له رجال ثم قال : أنشد بالله رجلاً سمع رسول الله ﷺ يوم جيش العسرة يقول : من ينفق نفقة متقبّلة ، فجهزتُ نصف الجيش من مالي؟ فانتشد له رجال .

ثم قال : أنشد بالله رجلاً سمع رسول الله ﷺ يقول : من يزيد في هذا المسجد ببيت في الجنة؟ فاشتريته من مالي ، فانتشد له رجال ، ثم قال : أنشد بالله رجلاً شهد رومة تباع ، فاشتريتها من مالي فأبحتها لابن السبيل ، فانتشد له رجال »[2] .

وعن أبي الأشعث الصنعاني رحمه الله : « أن خطباء قامت بالشام ، وفيهم رجالٌ من أصحاب رسول الله ﷺ ، فقام آخرهم رجلٌ يقال له : مرّة بن كعب ، فقال : لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما قمتُ وذكر الفتن فقرّبها ، فمرّ رجل مقنّع في ثوبه ، فقال : هذا يومئذٍ على

---

(١) سنن الترمذي : رقمه (٣٧٠١) .
(٢) سنن النسائي : ٦/٢٣٦ .

الهدى ، فقمت إليه ، فإذا هو عثمان بن عفان ، فأقبلت عليه بوجهه ، فقلت : هذا؟ قال : نعم »[1] .

وأما فضائل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فهي كثيرة جداً ، من ذلك :

ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « لما آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ، جاءه عليّ تدمع عيناه ، فقال له : يا رسول الله ، آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد ، قال : فسمعت رسول الله ﷺ يقول : أنت أخي في الدنيا والآخرة »[2] .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لعليّ : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي »[3] .

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : « أن معاوية بن أبي سفيان أمره ، فقال : ما يمنعك أن تسبّ أبا تراب ـ أي الإمام عليّ ـ؟ فقال : أمّا ما ذكرتُ ثلاثاً قالهنّ له رسول الله ﷺ فلن أسبّه ، لن تكون لي واحدة منهنّ أحبُّ إليّ من حُمر النَّعم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول له ـ وقد خلفه في بعض مغازيه ـ فقال له عليّ : يا رسول الله ، خلفتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبوّة بعدي .

وسمعته يقول يوم خيبر : لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ، ويحبّه الله ورسولُه ، قال : فتطاولنا ، فقال : ادعوا لي

---

(١) سنن الترمذي : رقمه (٣٧٠٥) .
(٢) سنن الترمذي : رقمه (٣٧٢٢) .
(٣) سنن الترمذي : رقمه (٢٧٣٢) .

علياً ، فأتي به أرمد ، فبصق في عينه ، ودفع الراية إليه ، ففتح الله عليه .

ولما نزلت هذه الآية ﴿ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٦١] دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً ، فقال : اللهم هؤلاء أهلي »[١] .

وعن زر بن حبيش قال : سمعت علياً رضي الله عنه يقول : « والذي فلق الحبّة ، وبرأ النسمة ، إنه لعهد النبي الأمي إليّ : أنه لا يحبني إلا مؤمن ، ولا يبغضني إلا منافق »[٢] .

وفي فضائل طلحة بن عبيد الله يروي جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سرّه أن ينظر إلى شهيدٍ يمشي على وجه الأرض ، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله »[٣] .

وفي فضائل الزبير بن العوام رضي الله عنه ، يروي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل نبيّ حوارياً ، وإن حواريّ الزبير بن العوام »[٤] .

وفي فضائل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، تروي عائشة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان يقول لنسائه : « إن أمركنّ مما يهمّني من بعدي ، ولن يصبر عليكن إلا الصابرون الصديقون ـ قالت عائشة : يعني المتصدّقين ـ ثم قالت عائشة لأبي سلمة بن عبد

---

(١) صحيح مسلم : رقمه (٢٤٠٤) ، سنن الترمذي : رقمه (٣٧٢٦) .
(٢) صحيح مسلم : رقمه (٧٨) ، سنن الترمذي : رقمه (٣٧٣٧) ، سنن النسائي : ١١٧/٨ .
(٣) سنن الترمذي : رقمه (٣٧٤٠) .
(٤) سنن الترمذي : رقمه (٣٧٤٥) .

الرحمن : سقى الله أباك من سلسبيل الجنة ، وكان ابن عوف قد تصدّق على أمهات المؤمنين بحديقة بيعت بأربعين ألفاً »[1] .

وفي فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ، يروي أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن لكل أمة أميناً ، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح »[2] .

وفي فضائل العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، يروي الترمذي أن العباس دخل على رسول الله ﷺ مغضباً ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما أغضبك؟ فقال : يا رسول الله ، أرى قوماً من قريش يتلاقون بينهم بوجوه مسفرة ، وإذا لقونا لقونا بغير ذلك ، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرّ وجهه ، وقال : والذي نفسي بيده ، لا يدخل قلب رجل إيمان حتى يحبكم لله ورسوله ، ثم قال : أيها الناس ، من آذى عمي فقد آذاني ، إنما عم الرجل صنو أبيه »[3] .

وفي فضائل جعفر بن أَبي طالب رضي الله عنه ، يروي أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت جعفراً يطير في الجنة مع الملائكة »[4] .

وفي فضائل الحسن والحسين رضي الله عنهما ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه : « سُئل النبي ﷺ : أي أهل بيتك أحبّ إليك؟ فقال :

---

(١) صحيح ابن حبان : رقمه (٢٢١٦) ، مستدرك الحاكم : ٣/ ٣٧ ، سنن الترمذي : رقمه (٣٧٥٠) .

(٢) صحيح البخاري : ٧/ ٧٣ ، صحيح مسلم : رقمه (٢١٩) .

(٣) سنن الترمذي : رقمه (٣٧٦٢) .

(٤) سنن الترمذي : رقمه (٣٧٦٧) ، مستدرك الحاكم : ٣/ ٢٠٩ .

الحسن والحسين ، وكان يقول لفاطمة : ادعي لي ابني ، فيشمهما ويضمهما إليه »[1] .

وروى يعلى بن مرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حسين مني ، وأنا من حسين ، أحبّ الله من أحبّ حسيناً ، حسين سبط من الأسباط »[2] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة »[3] .

وعن الحسن البصري رحمه الله ، قال : « سمعت أبا بكرة رضي الله عنه يقول : رأيت رسول الله ﷺ على المنبر ، والحسن بن علي إلى جنبه ، وهو يُقبل على الناس مرة ، وعليه أخرى ، ويقول : إن ابني هذا سيّد ، ولعل الله أن يُصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين »[4] .

وفي فضائل عمار بن ياسر رضي الله عنه يروي علي بن أبي طالب فيقول : « جاء عمار بن ياسر ، يستأذن على النبي ﷺ ، فقال : ائذنوا له ، مرحباً بالطيّب المطيّب »[5] .

وفي فضائل عبد الله بن مسعود رضي الله عنهن يروي عليّ بن أبي

---

(١) سنن الترمذي : رقمه (٣٧٧٤) .
(٢) سنن ابن ماجه : رقمه (١٤٤) ، سنن الترمذي : رقمه (٣٧٧٧) ، مستدرك الحاكم : ٣/ ١٧٧ .
(٣) سنن الترمذي : رقمه (٣٧٧٨) .
(٤) صحيح البخاري : ٧/ ٧٤ ، سنن النسائي ٣/ ١٠٧ ، سنن أبي داود : رقمه (٦٦٢) .
(٥) سنن الترمذي : رقمه (٣٧٩٩) .

طالب فيقول : قال رسول الله ﷺ : « لو كنت مؤمِّراً أحداً منهم من غير مشورة لأمّرت عليهم ابن أم عبدٍ »[1] .

وفي فضائل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه : « ما أظلّت الخضراء ، ولا أقلّت الغبراء ، أصدق من أبي ذر »[2] .

وفي فضائل بلال بن رباح رضي الله عنه : « قال له رسول الله ﷺ غداة صلاة : حدثني بأرجى عمل عملته عندك في الإسلام منفعة ، فإني سمعت الليلة خشف نعليك بين يديّ في الجنة ، قال بلال : ما عملتُ عملاً في الإسلام أرجى عندي منفعة من أني لا أتطهّر طهوراً تاماً في ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي »[3] .

وفي فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قالت أم سليم : يا رسول الله ، خادمك أنس ، ادع الله له ، فقال : اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك له فيما أعطيته »[4] .

وفي فضائل عبّاد بن بشر رضي الله عنه ، تروي عائشة رضي الله عنها قالت : « تهجّد النبي ﷺ في بيتي ، فسمع صوت عبّاد يصلي في المسجد ، فقال : يا عائشة أصوت عباد هذا؟ قلت : نعم ، قال : اللهم ارحم عبّاداً »[5] .

---

(١) سنن الترمذي : رقمه (٣٨١٠) .
(٢) سنن الترمذي : رقمه (٣٨٠٣) .
(٣) صحيح البخاري : ٢٨/٣ ، صحيح مسلم : رقمه (٢٤٥٨) .
(٤) صحيح البخاري : ١١٧/١١ ، صحيح مسلم : رقمه (٦٦٠) ، سنن الترمذي : رقمه (٣٨٢٧) .
(٥) صحيح البخاري : ١٨/٧ .

obeikandi.com

وهكذا ، لن نستطيع حصر الأحاديث النبوية الكثيرة في فضائل صحابة رسول الله ﷺ ، لكن يكفي الإشارات إلى ذلك ، وفي كتب الصحاح والسنن والمسانيد الخير الكثير ، وصدق النبي ﷺ ـ وهو الصادق الصدوق ـ عندما قال : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قومٌ تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته »[١] .

وصدق النبي ﷺ عندما قال : « إذا رأيتم الذين يسبّون أصحابي ، فقولوا : لعنة الله على شرّكم »[٢] .

وصدق النبي ﷺ عندما قال : « ليبلغ الحاضر الغائب ، الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله ، فيوشك أن يأخذه ، ومن يأخذه الله فيوشك أن لا يفلته »[٣] .

وقال : « ما من أحدٍ من أصحابي يموت بأرضٍ إلا بُعث لهم نوراً وقائداً يوم القيامة »[٤] .

تلكم طائفة من الأحاديث النبوية الواردة في فضل الصحابة الكرام ، ومن أراد التوسع فليراجع موسوعات الأحاديث النبوية ،

---

(١) صحيح البخاري : ٥/ ١٩١ ، صحيح مسلم : رقمه (٢٥٣٣) ، سنن الترمذي : رقمه (٣٨٥٨) .
(٢) سنن الترمذي : رقمه (٣٨٦٥) .
(٣) مسند الإمام أحمد : /٨٧ ، سنن الترمذي : رقمه (٣٨٦١) .
(٤) سنن الترمذي رقمه ٣٨٦٤ .

ولا سيما جامع الأصول لابن الأثير الجزري ففيه تفصيل وتبويب رائع .

كل ذلك لنتبين مدى أفضلية صحابة رسول الله ﷺ في ميزان السنة النبوية التي جاءت شارحة لكتاب الله تعالى ، سائلين المولى سبحانه أن يثبتنا على خط حب الله وحب رسوله ، وحب آل بيته ، وحب صحابته ، ومن سار على الدرب إلى يوم الدين .

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

الخاتمة

قال العلامة أبو جعفر الطحاوي (ت ٣٢١هـ) رحمه الله :

ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ، ولا نُفرط في حبِّ أحدٍ منهم ، ولا نتبرأ من أحدٍ منهم ، ونبغض من يبغضهم ، وبغير الخير يذكرهم ، ولا نذكرهم إلا بخير ، وحبّهم دين وإيمان وإحسان ، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان[١] .

بهذه العقيدة في أصحاب رسول الله ﷺ ، استنطقنا القرآن والسنة فوجدنا حديثاً مفصلاً عن فضائل الصحابة الأكارم .

الصحابة الكرام ، أولئك القوم ، أولئكم الصفوة من البشر ، الذين اختارهم الله ليكونوا سياجاً حول رسول الله ﷺ ، وليكونوا أنصاراً لدين الله وقت أن وقف العتاة ضد هذا الدين الحنيف ، وليكونوا المقربين والمستشارين للنبي وقت أن كان الكثير من الناس يقفون ضده صلوات الله عليه .

وليكونوا حملة السيوف للدفاع عن رسول الله ﷺ وقت أن كان الكثير حملةً للسيوف ضد رسول الله .

أولئك الصفوة من الخلق ، الذين باعوا كل شيء في سبيل نيل

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية للقاضي علي بن أبي العز الدمشقي : ٥٤٥ .

obeikandl.com

رضا الله ورضا رسوله ﷺ ، فباعوا الدنيا وطلقوها ثلاثاً لا رجعة بعدها ، وأولئك الصفوة من البشر ، الذين عاهدوا الله على نصرة الدين ، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فملئت قلوبهم بالإيمان حتى لم يعودوا يخافون شيئاً .

أولئك القوم عاشت أجسادهم في الدنيا ، بينما كانت قلوبهم وأرواحهم تعيش مع نسمات الخلد في جنان الفردوس ، لذلك كان خير وصف لهم ما قاله الإمام علي رضي الله عنه : والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرى اليوم شيئاً يشبههم ، لقد كانوا يصبحون صُفراً شعثاً غبراً ، بين أعينهم كأمثال ركب المعزى(١) ، وقد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله ، يتراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا(٢) كما يميد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم حتى تبتلّ ثيابهم ، أولئك الصفوة من البشر ، ذكرهم الله بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠] .

لقد استجابوا للنداء الإلهي والرسولي ، فأعلنوا : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران : ١٩٣] .

وعندما رأوا النور وإشراقاته ، لم يحتكروا ذلك على أنفسهم ، إنما أرادوا أن يوصلوه إلى كل أرجاء المعمورة ، فانساحوا في الأرض ، لا بهدف السياحة أو التجارة أو الترفيه!! إنما بهدف نشر تعاليم السماء ، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد الديان ، فاستحقوا قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

---

(١) أي : علامة في الوجوه من أثر السجود .
(٢) أي : تحركوا .

همو صحابة خير الخلق أيدهم ربّ السماء بتوفيق وإيثار
فحبهم واجب يشفي السقيم به فمن أحبهمو ينجو من النار

أولئك النخبة من البشر ، حطّم الله على أيديهم أكبر إمبراطوريات ذلك الزمان : الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيزنطية .

وإنه لشيء فيه العجب العجاب عندما ندرس كيفية تحطيم هاتين الإمبراطوريتين في ظرف زمني قصير ، وحيث لم تكن الحروب بينهما متكافئة .

إنما خضعت المسألة وقتئذٍ للصدق والإخلاص والتوكل على الله والخيرية للناس والاعتماد على الله ، ولذلك انتصر جيش الله الذي يقوده رسول الله ﷺ ، بينما كان أفراده هم صحابة رسول الله ، فكان شيئاً فيه مثاليات وأمور خارقة : ذلك لأن الصحابة الكرام عندما وصلوا إلى قمة الحكم لم يبطشوا ولم ينهبوا ولم يقطعوا الرؤوس والرقاب ، إنما زادهم ذلك شعوراً ومسؤولية أمام الله سبحانه .

لذلك نقول وبكل فخر : إنهم نخبة طاهرة زكّاهم الله وطهّرهم ، واختارهم ليكونوا حول رسول الله ﷺ في السلم والحرب ، وكانوا جيش الله الذي استأصل الكفر والشرك في ذلك الزمان .

يحدثنا التاريخ أمثلة فيها العجب العجاب من تاريخهم ، من ذلك أنه عندما سقطت مملكة فارس أمام ضربات جيش الله وسقط قائد الفرس قتيلاً ، كان يلبس تاجاً من الذهب مرصعاً بالمجوهرات ، فانتشله واحد من جيش الله ، والتاج يقدّر بالملايين من الدنانير الذهبية ، فماذا حدث؟!

بكل هدوء وخوف من الله ، حمل هذا الصحابي التاج إلى خيمة قائد المسلمين بعد أن لفّ التاج بالقماش ، ولما وضعه بين يدي

القائد ، سأله : ما اسمك أيها الرجل؟ فكان الجواب : إن الذي صنعت له هذا الصنيع هو أعلم باسمي!!!

أولئكم هم جيش الله المطهر ، الذي أحدث الله على يديه المعجزات الإلهية ، ولن يتكرر مثل هذا الجيش إلا إذا عاد المسلمون إلى المنهج نفسه الذي تربى عليه صحابة رسول الله ﷺ .

فهل بعد ذلك يحق لإنسان أن يقلل من أهمية الصحابة ، أو يشتمهم ، أو يسبّ أحداً منهم ، أو يقول : هم رجال ونحن رجال!!؟

من أحسن الظن في الله الكريم وفي ... رسوله كان مكتوباً من الشرفا
ومن أحب صحاب المصطفى فله ... جنات عدن يرى في ظلها غرفا
ومن يكن باغضاً منهم فإن له ... نار الجحيم ويضحى باكياً أسفا
فهم نجوم الهدى في كل مظلمة ... والله حسبي فيما قلته وكفى

نسأل الله أن يجعل حبه أحب الأشياء إلينا ، وأن يجعل حب رسوله ﷺ ديدننا ، وأن يجعل حب آل بيت رسول الله شعارنا ، وأن يجعل حب أصحاب رسول الله عقيدتنا التي نلقى بها ربنا ، آمين آمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

طوبى لمن قلبه بالله مشتغل ... يبكي النهار وطول الليل يبتهل
خوف الوعيد وذكر النار أذهله ... والدمع جارٍ على الخدين ينهمل
يهوى صحابة خير الخلق كلهم ... فحبهم واجب يرجى به الأمل
الله فضلهم حقاً وشرّفهم ... بالمصطفى وبه قد ضاءت السبل
صلى عليه إله العرش ثم على ... أهليه والصحب ما حنّت له الإبل

* * *

المراجع والمصادر

١ ـ الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد القرطبي ، ط سنة ١٩٩٣م دار الكتب العلمية ، بيروت .

٢ ـ التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ، للإمام محمد بن عمر التميمي البكري الرازي ، ط١ـ ١٩٩٠م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٣ ـ تفسير القرآن العظيم ، للحافظ ابن كثير الدمشقي ، ط١ـ ١٩٦٦ ، دار الأندلس ، بيروت .

٤ـ صحيح البخاري ـ للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ـ ضبطه الدكتور مصطفى البغا (د . ت) .

٥ ـ شرح صحيح مسلم ، للإمام النووي ، مراجعة الشيخ خليل الميس ، ط١ ١٩٨٧ ، دار القلم ، بيروت .

٦ ـ سنن الترمذي ، لأبي عيسى محمد بن سورة الترمذي ، تعليق عزت الدعاس ، ط١ـ ١٩٦٧ ، دار الفجر الحديثة ، حمص .

٧ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ، ط/ دار الفكر ، بيروت (د . ت) .

٨ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، علاء الدين المتقي الهندي ، ط١ ١٩٦٩م ، مكتبة التراث الإسلامي ، حلب .

٩ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد ، للإمام ابن قيّم الجوزية ، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط ، ط١ـ ١٩٧٥م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

١٠ ـ دلائل النبوة ومعرفة أصحاب الشريعة ، للإمام البيهقي ، ط١ـ ١٩٨٥ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

١١ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض بن موسىٰ بن عياض اليحصبي ، ط١ـ ١٩٨٤م ، دار الكتاب العربي ، دمشق .

١٢ ـ المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، للعلامة أحمد بن محمد القسطلاني ، ط١ ١٩٩١م ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

١٣ ـ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، جمعها محمد حميد الله ، ط٤ـ ١٩٨٣م ، دار النفائس ، بيروت .

١٤ ـ الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة : للزركشي ، تحقيق سعيد الأفغاني ، دار القلم ، بيروت .

١٥ ـ الاحتجاج ، للطبرسي ، مطابع النعمان بالنجف ـ العراق ١٩٦٨م .

١٦ ـ الإحكام في أصول الأحكام ، لابن حزم ، مطبعة الامتياز بمصر ١٩٧٨م .

١٧ ـ الاختصاص ، للشيخ المفيد ـ محمد النعمان العكبري ، المطبعة الحيدرية ـ النجف ، ١٩٧١م .

١٨ ـ إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول : للإمام الشوكاني ، مطبعة البابي الحلبي (د . ت) .

١٩ ـ أصول الدين ، للإمام أبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، ط١ـ ١٩٢٨م إسطنبول .

٢٠ ـ الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة ، للإمام البيهقي ، ط١ ١٩٦١م .

٢١ ـ أهل البيت ـ منزلتهم ومبادئهم ـ محمد جواد مغنية ، منشورات مكتبة الأندلس ، بيروت ١٩٥٦م .

٢٢ ـ البداية والنهاية ، للحافظ ابن كثير الدمشقي ، ط١ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩١م .

٢٣ ـ تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الأعلام ، للإمام الذهبي ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٦٨ هـ .

٢٤ ـ تاريخ الطبري ، لابن جرير الطبري ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، ط١ دار المعارف بمصر .

٢٥ ـ تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ، للحافظ السيوطي ، ط٢ـ ١٩٦٦م . دار الكتب الحديثة .

٢٦ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول ، لابن الأثير ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، مطبعة الملاح ١٩٦٩م .

٢٧ ـ جمع الجوامع ، للإمام السبكي ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية .

٢٨ ـ روضة الطالبين ، للإمام النووي ، ط/ المكتب الإسلامي ، بيروت .

٢٩ ـ الشافي في شرح أصول الكافي ، للشيخ عبد الحسين بن عبد المظفر ـ أبي ذر زمانه ـ ط/ النعمان : النجف بالعراق ١٩٥٨م .

٣٠ ـ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، لابن عقيل الهمداني ، ط١٥ـ ١٩٧٢ دار الفكر ، بيروت .

٣١ ـ طبقات الحفاظ ، للإمام السيوطي ، تحقيق علي محمد عمر ، ط١ـ ١٩٧٣ ، مطبعة الاستقلال الكبرى ، بيروت .

٣٢ ـ الفرق بين الفرق ، للإمام عبد القادر بن طاهر البغدادي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة المدني بالقاهرة .

٣٣ ـ اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ، للحافظ السيوطي ، ط/ المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

٣٤ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للإمام نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ، ط٢ ١٩٦٧ دار الكتاب ، بيروت .

٣٥ ـ المحلىٰ ، للإمام ابن حزم الظاهري ، منشورات المكتب التجاري للنشر ، بيروت .

٣٦ ـ المراجعات ، للشيخ عبد الحسين شرف الدين الموسوي ، مطبعة النعمان في النجف بالعراق ، ط٥ـ١٩٦٨م .

٣٧ ـ مسلم الثبوت في أصول الفقه مع شرحه فواتح الرحموت لابن نظام الدين ، للإمام محب الله بن عبد الشكور ، ط١ـ ١٣٢٢ ، المطبعة الأميرية بمصر .

٣٨ ـ مشاهير علماء الأمصار ، للإمام محمد بن حبان البستي ، ط ١٩٥٩م لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .

٣٩ ـ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ، للإمام ابن تيمية ، ط١ ١٣٢٢م المطبعة الأميرية ببولاق ، مصر .

٤٠ ـ الإصابة في تمييز الصحابة ، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني ، بيروت دار الفكر ١٩٧٨ ط١ .

٤١ ـ الطبقات الكبرى ، لابن سعد ـ محمد بن سعد بن منيع الهاشمي ـ تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ط١ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٤٢ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال : شمس الدين الذهبي ، ومعه : ذيل ميزان الاعتدال لأبي الفضل عبد الرحيم العراقي . ط١ـ دار الكتب العلمية ١٩٩٥م .

٤٣ ـ الأساليب البديعة في فضل الصحابة ، يوسف النبهاني ، ط١ دار المعارف ، تونس ١٩٨٩م .

٤٤ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : أبو نعيم أحمد الأصفهاني ، المكتبة السلفية ، القاهرة ١٩٧٠م .

٤٥ ـ الأجوبة العراقية على الأسئلة اللاهورية : للسيد محمود أفندي الآلوسي ، المطبعة الحميدية . بغداد .

٤٦ ـ الإحكام في أصول الأحكام ، لأبي الحسن علي الآمدي ، مطبعة صبيح بالقاهرة ١٩٦٨م .

٤٧ ـ إحياء علوم الدين ، للإمام الغزالي ، ط/ دار الخير بدمشق .

٤٨ ـ الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ، للإمام الجويني ، مطبعة دار السعادة بمصر ١٩٥١م .

٤٩ ـ أُسْد الغابة في معرفة الصحابة ، للإمام ابن الأثير ، تحقيق محمد البنا ، دار الشعب بمصر (د . ت) .

٥٠ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لابن عبد البر ، تحقيق علي البجاوي ، مطبعة نهضة مصر (د . ت) .

٥١ ـ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، للإمام الرازي ، ط١ـ ١٩٣٨م .

٥٢ ـ الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ، للإمام ابن كثير ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مطبعة صبيح بالقاهرة (د . ت) .

٥٣ ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، للإمام المباركفوري ، مطبعة الاعتماد .

٥٤ ـ التحرير في أصول الفقه ومعه تيسير التحرير ، لابن همام الدين الإسكندري ، مطبعة البابي الحلبي ١٣٥١ هـ .

٥٥ ـ تذكرة الحفاظ ، للحافظ الذهبي ، ط٤ دائرة المعارف بالهند .

٥٦ ـ تهذيب الأسماء واللغات ، للإمام النووي ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت .

٥٧ ـ تهذيب التهذيب ، للإمام ابن حجر العسقلاني ، دار صادر ، بيروت .

٥٨ ـ در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة ، للإمام السيوطي ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، ط١ـ ١٩٦٧ دار إحياء الكتب العربية .

٥٩ ـ السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، للدكتور مصطفى السباعي ، مطبعة المدني بالقاهرة ، ط١ـ ١٩٦١م .

٦٠ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب . للإمام ابن العماد الحنبلي ، المكتب التجاري للطباعة . بيروت ، لبنان .

٦١ ـ الصارم المسلول على شاتم الرسول ، للإمام ابن تيمية ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . دار الفكر بيروت .

٦٢ ـ غاية المرام في علم الكلام ، للإمام الآمدي ، تحقيق حسن محمود عبد اللطيف ، ط ١٩٧١م . مطابع الأهرام ـ القاهرة .

٦٣ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل ، للإمام ابن حزم الأنصاري ، دار المعرفة للنشر ، بيروت .

٦٤ ـ الكامل في التاريخ ، للإمام ابن الأثير ، ط ١٩٦٥م دار صادر ، بيروت .

٦٥ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر : أبو السعادات المبارك ـ ابن الأثير ، تحقيق محمود الطناحي وطاهر أحمد الزاوي ، ط١ ـ ١٣٨٣ هـ عيسى البابي الحلبي .

٦٦ ـ النص والاجتهاد ، للشيخ عبد الحسين شرف الدين الموسوي ، ط دار الأندلس ، بيروت .

٦٧ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، للإمام الذهبي ، تحقيق علي البجاوي ، مطبعة عيسى البابي .

٦٨ ـ الموضوعات ، للإمام ابن الجوزي ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، ط١ ١٩٦٦م مطابع المجد ، القاهرة .

٦٩ ـ منهج ذوي النظر شرح منظومة علم الأثر للسيوطي ، لشيخ محمد محفوظ الترميسي ، ط٣ـ ١٩٥٥م مطبعة مصطفى البابس الحلبي بمصر .

٧٠ ـ كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب (الخصائص الكبرى) ، للإمام السيوطي ، ط/ دار الكتاب العربي (د . ت) .

٧١ ـ علوم الحديث ، للإمام أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري (ابن الصلاح) ، تحقيق الدكتور نور الدين عتر ، ط ١٩٨٦ ، دار الفكر ، دمشق .

٧٢ ـ صحيفة همام بن منبه عن أبي هريرة ، تحقيق الدكتور رفعت عبد المطلب ، ط١ ١٩٨٥م ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

٧٣ ـ الناسخ والمنسوخ من الحديث ، للحافظ ابن شاهين ، تحقيق الدكتور علي معوض والشيخ عادل عبد الموجود ، ط١ـ ١٩٩٢م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٧٤ ـ السنّة قبل التدوين ، الدكتور محمد عجاج الخطيب ، ط٣ـ ١٩٨٠م ، دار الفكر ، بيروت .

٧٥ ـ الأحاديث القدسية ، ط١ـ ١٩٨٣م ، منشورات دار النصر ، بيروت .
٧٦ ـ المسيرة التاريخية لتطبيق الزكاة : دراسة تاريخية فقهية اقتصادية ، محمد عمر الحاجي ، دار النور ، ط١ـ ١٩٩٦م .
٧٧ ـ الفقراء والأغنياء في ميزان الشريعة الإسلامية ، محمد عمر الحاجي ، ط١ ١٩٩٥م ، دار المكتبي دمشق .
٧٨ ـ شرح العقيدة الطحاوية ، للقاضي علي بن أبي العز الدمشقي ، تحقيق بشير محمد عيون ، ط١ـ ١٩٨٥م ، دار البيان بدمشق ، مكتبة المؤيد بالطائف .
٧٩ ـ في ظلال القرآن ، سيد قطب ، الطبعة الشرعية الثالثة والعشرون ١٩٩٤م . دار الشروق ، بيروت .
٨٠ ـ الأنوار في شمائل النبي المختار ، للإمام البغوي ، تحقيق العلامة إبراهيم اليعقوبي ، ط١ـ ١٩٩٥م ، دار المكتبي ، دمشق .
٨١ ـ دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ، الشيخ محمد الغزالي ، ط١ـ ١٩٨٨م ، دار الكتب ، الجزائر .
٨٢ ـ كيف نتعامل مع السنة النبوية ؟الدكتور يوسف القرضاوي ، منشورات دار الكتب ، الجزائر (د . ت) .
٨٣ ـ ترتيب القاموس المحيط ، للطاهر أحمد الزاوي ، ط٢ مطبعة عيسى البابي الحلبي .
٨٤ ـ لسان العرب ، للإمام ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٨م .
٨٥ ـ معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٤م .
٨٦ ـ القاموس المحيط ، العلامة الفيروزآبادي ، ط١ ١٩٨٦م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

* * *

obeikandl.com

المحتوى

تقديم الأستاذ محمد راتب النابلسي ٥
تقديم الأستاذ نذير محمد مكتبي ١٣
المقدمة ٢٣

الباب الأول : مسائل تتعلق بالصحبة ٢٩
الفصل الأول : من هو الصحابي (تعريفات) ٣١
البحث الأول : الصحابي لغةً ٣١
البحث الثاني : الصحابي اصطلاحاً ٣٣
الفصل الثاني : تعداد الصحابة ٣٧
البحث الأول : في الطريق إلى معرفة كون الشخص
صحابياً ٣٧
البحث الثاني : طبقات الصحابة وتعدادهم ٤٠
الفصل الثالث : عدالة الصحابة ٤٧
البحث الأول : مفهوم العدالة ٤٧
البحث الثاني : آراء وردود حول مسألة العدالة!! ٤٩
١ـ رأي المعتزلة ٥٠
٢ـ رأي الشيعة ٥٣
٣ـ رأي أهل السنة والجماعة ٥٥
البحث الثالث : ما هو موقفنا مما جرى بين الصحابة من
مشاجرات واقتتال؟ ٨٣
الفصل الرابع : محاولة بعضهم التقليل من أهمية الصحابة ... ٩٣

obeikandl.com

البحث الأول : حكم سبّ أحد الصحابة ٩٣
البحث الثاني : حكم من اتّهم أحد الصحابة بتهم لا تليق . ١٠٥

الباب الثاني : فضائل الصحابة في ميزان الشريعة الإسلامية ١١١
الفصل الأول : ماذا عن التفاوت في الفضل ؟ ١١٣
١ـ مذهب أهل السنة ١١٦
٢ـ مذهب الشيعة الإمامية ١١٩
٣ـ مذاهب متفرقة ١٢٠
الفصل الثاني : حديث القرآن الكريم عن فضائل الصحابة . . ١٢٩
١ ـ في سورة البقرة ١٢٩
٢ ـ في سورة آل عمران ١٣٣
٣ ـ في سورة المائدة ١٤١
٤ ـ في سورة الأنعام ١٤٧
٥ـ في سورة الأنفال ١٥١
٦ ـ في سورة التوبة ١٥٣
٧ ـ في سورة النحل ١٦٤
٨ ـ في سورة الحج ١٦٥
٩ ـ في سورة الأحزاب ١٦٦
١٠ ـ في سورة الفتح ١٦٧
١١ ـ في سورة الحديد ١٧٤
١٢ ـ في سورة الحشر ١٧٥
الفصل الثالث : فضائل من خلال الأحاديث النبوية الشريفة . ١٧٩
الخاتمة ١٩٥
المصادر والمراجع ١٩٩
المحتوى ٢٠٧